أصابيع وكلمات المصالوب

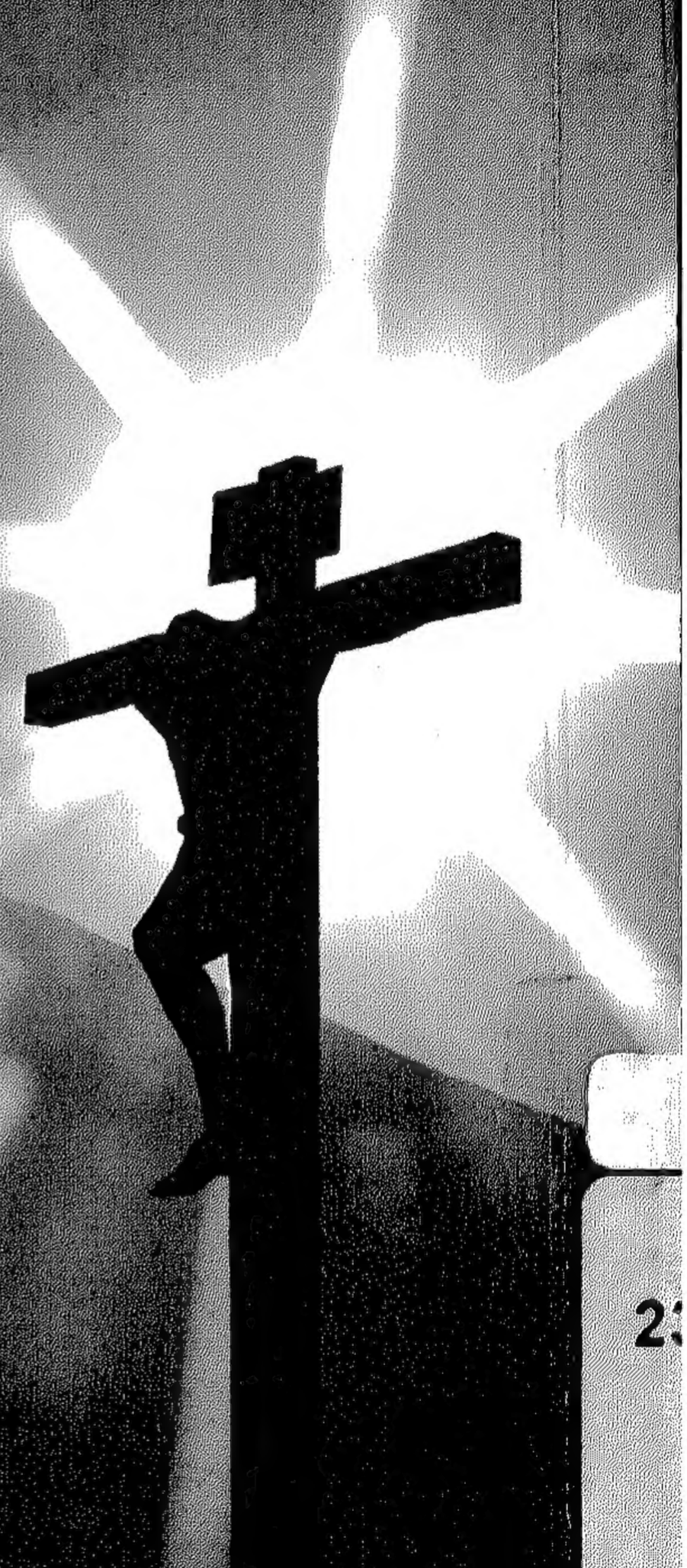

يوسف رياض

اهداءات ٢٠٠٢

مكتبة الاخوة

الصليب وكلمات المصلوب

الصليب وكلمات المصلوب

يوسف رياض

طبعة أولى

٢٠٠٠

الصليب وكلمات المصلوب

المؤلف : يوسف رياض

يُطلب من: مكتبة الإخوة ٣ش أنجه هانم – شبرا مصر ت: ٥٧٩٢٢٨٤

بريد الكتروني: brethren_pub@writeme.com

وفروعها: مصرالجديدة : ٦٥ش نخلة المطيعي ترپومف ت: ٢٩٠٤٠٠٣

الأسكندرية : ٦ش الفسطاط كلبوباترا

المنيا . ٦ش الجيش ت:٣٦٤٤٠٦

أسيوط . ٢١ش عبدالخالق ثروت ت: ٣٤٢٠٢٨

ومن المكتبات المسيحية الأخرى

طبع بمطبعة السلام للطباعة

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/١٩٠٣١

الترقيم الدولى: *ISBN 977-321-027-8*

محتويات الكتاب

تقديم ٧

مقدمة ٩

العبارة الأولى: **كلمات الغفران**

يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ ١٥

العبارة الثانية: **كلمات الترفُّق**

يَا امْرَأَةُ، هُوَذَا ابْنُكِ... هُوَذَا أُمُّكَ. ٣٣

العبارة الثالثة: **كلمات التعزية**

الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ، إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ ٥١

العبارة الرابعة: **كلمات الهجر**

إِيلِي، إِيلِي، لَمَا شَبَقْتَنِي؟ إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ ٧٥

العبارة الخامسة: **كلمة الألم**

أَنَا عَطْشَانُ. ٩٩

العبارة السادسة: **كلمة الانتصار**

قَدْ أُكْمِلَ ١٢١

العبارة السابعة: **كلمات التسليم**

يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي ١٤٥

تقديم

كلمات الرب من فوق الصليب موضوع شيق، يجد فيه كـــل دارس للكلمـــة المكتوبة، وكل محب للكلمة المتجسد، مادة دسمة وشهية. ولقد سبق لي مـــرات عديدة أن سعدت وأنا أدرس هذا الموضوع العظيم. فقدمت مـــرات دراســات وعظية فيه في العديد من الاجتماعات الخاصة. بعد ذلك قدّمت الموضوع ذاتـــه كمادة إذاعية مسلسلة في إذاعة "حول العالم"، ثم بعد ذلك قدمته في موضوعـــات مسلسلة ظهرت في مجلة "النعمة والحق" في الفـــترة مـــن عـــام ١٩٩٧ حتـــى عام٢٠٠٠. وكنت كلما أدرس هذا الموضوع أجد المزيد المعزي لأضيفه إلـــى المادة التي قُدّمت في المرة الأسبق. وها أنا أخيراً أقدمه الآن في صورة كتـــاب بعنوان "الصليب وكلمات المصلوب"، راجياً أن يستخدمه الرب لبركـــة القـــارئ العربي في كل مكان ولفائدته، ولخير جميع الذين يحبـــون المســـيح ويفـــهمون مدلول عمله الفدائي لأجلهم من فوق الصليب.

يوسف رياض

مقدمة

من فوق الصليب، وفي خلال الساعات الرهيبة التي قضاها المسيح وهو معلق عليه، نطق – له المجد – بسبع عبارات غالية وثمينة جداً. وهي عبارات لم يُسمع على مدى التاريخ أروع منها، كل واحدة منها تحتوي على محيط زاخر من المعاني.

والكلمات الأخيرة في حياة كل إنسان يكون لها عادة مدلول كبير وقيمة فريدة. فهكذا كانت كلمات يعقوب الأخيرة (تك٤٩)، وكلمات موسى الأخيرة (تث٣٢؛٣٣)، وكلمات يشوع الأخيرة (يش٢٤)، وكلمات داود الأخيرة (٢صم٢٣). لكننا في هذا الكتاب سندرس كلمات المسيح الأخيرة، ليس تلك التي قالها في حياته، بل التي قالها من فوق الصليب.

لقد تكلم أناس عاشوا على الأرض، قبل المسيح وبعده، بكلمات طيبة وصادقة. لكن بكل تأكيد لم يتكلم إنسان قط بمثل ما تكلم المسيح. كما أن المسيح لم يتكلم قط بأروع مما تكلم به من فوق الصليب ولا بأعمق.

العبارات الثلاث الأولى كانت أثناء ثلاث ساعات الصلب الأولى، أي من التاسعة صباحاً حتى الثانية عشر ظهراً بتوقيتنا الحاضر. ثم حدثت الظلمة

المعجزية مدّة ثلاث ساعات. وخلال ساعات الظلمة لم يُسمع صوت أحد من البشر، وفيها لم ينطق المسيح بكلمة واحدة على الإطلاق، إذ كان مشغولاً بأعظم عمل، ومحارباً في أعظم معركة. ثم بعد ساعات الظلمة الثلاث نطق الرب بالعبارات الأربع الأخيرة في تتابع سريع، وأسلم الروح.

ولقد كانت الثلاث العبارات الأولى خاصة بالبشر المحيطين بالصليب، قالها المسيح عنهم أو إليهم، أما العبارات الأربع الأخيرة فإنها كانت خاصة بشخصه الكريم.

* * * *

إننا أحياناً عندما نقرأ فصولاً معيّنة في الكتاب المقدس، يملأنا الشعور بنعمة الله الفيّاضة، فنحس بإحساس الابن الراجع من الكورة البعيدة عندما جعلوا الحذاء في رجليه، واقتادوه ليدخل البيت مُرّحَباً به. ولكننا أمام مشاهد وفصول أخرى، يكون الشعور الطاغي ليس بتلك النعمة العجيبة، بل بالقداسة المطلقة، وعندئذ فإننا بدل أن نفرح بالحذاء في أرجلنا نبادر بخلعه، إذ يدوي في أسماعنا الصوت الذي سمعه موسى قديماً: «لا تقترب إلى ههنا... لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدّسة» (خر٣:٥). وقطعاً لا توجد بقعة مقدسة في كل الكون، ولا مشاهد مقدسة في كل الوحي، نظير بقعة الجلجثة والحوادث التي دارت هناك عندما رُفع المسيح فوق الصليب ليموت بدل الخطاة!

* * * *

هذه العبارات السبع هي بمثابة طاقات نتطلع من خلالها إلى ما كان يدور في ذهن مسيح الله خلال ساعات الصليب. ومع أنها كلمات مقتضبة فهي محمّلة بالمعاني، زاخرة بالدلالات.

قال واحد: "كما كان يجب ألا يُكسر عظم من عظام المصلوب، هكذا فإن

كلمة واحدة من كلمات المصلوب لا ينبغي أن تضيع".

كانت كلمات الرب بترتيبها* الذي نطق به:

العبـــارة الاولى : وهي صلاة وجهها للآب من أجل الأعداء الذين كانوا قد فرغـوا لتوهم من صلبه:

«يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

هنا نجد غفران الخطايا المجاني للأعداء.

العبـارة الثانيـة : قالها لأمه مريم، وكذلك لتلميذه يوحنا، مستودعاً إياها لعنايته:

«يا امرأة هوذا ابنك. ثم قال ليوحنا هوذا أمك».

هنا نرى الإنسان الكامل مهتماً بأمه.

العبـارة الثالثـة : قالها للّص التائب مرحِّباً به في الفردوس:

«الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس».

هنا نرى خلاص الله العجيب الذي يعطي المؤمـــن الأمـان فـي ساعة انطلاقه وموته.

العبـارة الرابعـة : قالها من عمق الظلمة موجِّها إياها لله بسبب تركه له:

«إلهي إلهي لماذا تركتني».

هنا نرى النبيحة الكفارية والآلام التي احتملها.

---

* لا يمكن الجزم بصورة مطلقة بترتيب كلمات المسيح من فوق الصليب، سيما وأنها لم تـــرد كلـها مجتمعة في أي إنجيل، لكن بمقارنة المكتوب بالمكتوب يمكننا استنتاج الترتيب المقترح عاليه.

العبارة الخامسة : موجّهاً إياها لكل من له أذن، معبراً فيها عن آلامه الجسدية:

«أنا عطشان».

في هذه العبارة نرى صدق كلمة الله، وعدم سقوط كلمة واحدة منها، وحرص المسيح على إتمامها.

العبارة السادسة : موجّها إياها لكل من يعنيه الأمر، معبّراً عن إكماله عمل الفداء:

«قد أكمِل».

وفيها نرى كمال العمل العظيم الذي قام به المسيح.

العبارة السابعة : موجّها إياها لأبيه، مستودعاً روحه بين يديه:

«يا أبتاه في يديك استودع روحي».

هنا نرى الأمان والثقة من جانب المتألم البار في ساعة موته.

وبكلمات أخرى فإننا

في العبارة الأولى : نرى **الوسيط متوسلاً**

في العبارة الثانية : نرى **الكمال مترفقاً**

في العبارة الثالثة : نرى **الملك مرحّباً**

في العبارة الرابعة : نرى **الذبيح متألماً**

في العبارة الخامسة : نرى **الشهيد معذّباً**

في العبارة السادسة : نرى **المخلص مكمّلاً**

في العبارة السابعة : نرى **الإنسان مسلّماً**

سبع عبارات، والرقم "سبعة" في كل الكتاب المقدس من أوله إلـــى آخـــره، هو رقم الكمال. والآن إذ نتأمل في عبارات المسيح السبع من فـــوق الصليـــب فإننا نتأمل فى الكمال بعينه.

نعم إن هذه العبارات تتلألأ بأروع مما تتلألأ به المنـــائر الســـبع الذهبيـــة، وتشع من الضياء أعظم مما تشع به الكواكب السبعة في سفر الرؤيـــــا. ولَكَـــم اهتدى بهديها الملايين! ولكم شهدت لسموّ قائلها، وسموّ عمله في آن معاً!

العبارة الأولى من فوق الصليب

كلمات الغفران

ولما مضوا به إلى الموضع الذي يُدعى جمجمة صلبوه هناك مع المذنبين، واحداً عن يمينه والآخر عن يساره. فقال يسوع:

يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ

لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ

(لو ٢٣: ٣٣، ٣٤)

الكلمة الأولى: صلاة!

الشيء اللافت أن أولى عبارات المسيح المجيدة من فوق الصليب كانت صلاة لله.

يا له من شخص عجيب ليس له نظير! فها إن يديه لم تعودا تعملان الخير كما عملتا كثيراً، إذ سمرهما البشر على الصليب، ورجليه لم تعودا تحملانه إلى البؤساء والمساكين ليخدمهم، لأنهما مسمرتان كذلك على الصليب، وشفتيه لم تعودا تنطقان بكلمات الوعظ والتعليم لتلاميذه كعادتهما، لأن تلاميذه كلهم تركوه وهربوا. فبأي شيء ينشغل ذلك الشخص العجيب، في ذلك الوقت العصيب؟ إنه ينشغل بالصلاة لأبيه!

كان آخر عمل عمله – تبارك اسمه – قبل القبض عليه في بستان جثسيماني هو الصلاة لأبيه. وبعدها اقتيد للمحاكمة، حيث حُكِمَ عليه جوراً، وعُذِّب ظلماً، لكنه في كل مراحل المحاكمة ظَلّ صامتاً، لم يدافع عن نفسه قط. ولم ينطق بشيء إلا لكي يشهد للحق. وعندما عُذِّب تحمَّل غُصص الألم صامتاً دون أن يتأوه، إذ كان «كشاةٍ تُساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازّيها فلم يفتح فاه» (إش٥٣:٧). لكن ذاك الذي ظل أمام البشر صامتاً لا يفتح فاه، ها هو يتجه إلى أبيه في صلاة. فما أروعه!

لقد كانت عادة الصلاة بالنسبة لربنا يسوع المسيح أقــوى مــن أن توقفــها جرعات الألم مهما اشتدت. وفي إنجيل لوقا بالذات، حيــث ورد هــذا النُطــق للرب يسوع، وهو الإنجيل الذي يقدِّمه لنا باعتباره الإنسان الكامل، نجد المســيح مصلّياً سبع مرات*. ومن العبارات السبع على الصليب اختُــصَّ لوقــا بذِكــرِ ثلاث، وكانت منها العبارتان الأولى والأخيرة من هذه العبارات الســبع، وهمــا صلاتان لأبيه أيضاً.

هذا هو الإنسان الفريد الكامل، رجل الصلاة. لكن توقيــت صلاتــه هــذه المرة يُضفي على صلاته جمالاً خاصاً، وعلى شخصه مجداً فريداً. فــهو الآن في آخر لحظاته، وتتم فيه كلمات إشعياء النبي في الأصحــاح ٥٣ «لأن حياتــه تُنتَزع من الأرض» (أع٨:٣٣)، ومع ذلك نراه مصلياً!

في مزمور ١٠٩ ترد عنه هذه الكلمات «انفتح عليَّ فم الشرير... بكــلام بُغضٍ أحاطوا بي، وقاتلوني بلا سبب. بدل محبتــي يخــاصمونني. أمــا أنــا فصلاة» (١٠٩:٢-٤). إنه لا يقول أما أنا فأصلي، بل «أما أنا فصلاة».

هذا هو القدوس الفريد الذي غمِر تماماً بعادة الصلاة، عاش فيها وعاشــت فيه، فأصبحت من مكونات حياته الإنسانية الفريدة، حتى إنه حالما فــرغ الجنــد القساة القلب من عملية الصليب، فبدلاً من أن يتأوه وينّ ويصرخ، تحــوَّل إلــى الله بالصلاة قائلاً: يا أبتاه.

لقد شبّه أحدهم شخصه بصُرة المُر التي تظل تبعــث عِطرهــا بــلا توقــف، ومهما كانت الظروف. ويا له من درس هام لكل مؤمن! فهناك أشخاص تبعدهــم قسوة الألم عن عرش النعمة، وتحرمهم مرارة التجارب التمتــع بقلــب الله. أمــا المسيح فما كان أشد آلامه، ومع ذلك تحوّل - أول ما تحوّل - إلى الله بالصلاة.

---

* انظر لو٣: ٢١؛ ٥: ١٦؛ ٦: ١٢؛ ٩: ١٨،٢٩؛ ١١: ١؛ ٢٢: ٤١.

رئيس الإيمان ومكمِّله

كانت أول كلمة ينطق بها المسيح بعد صلبه هي «يا أبتاه». ويا لها من كلمة تعبِّر عن شركة وثيقة عميقة مع الله! شركة مستمرة هادئة، برهنت على أن إيمان ذلك القدوس بالله لم يتزعزع إطلاقاً رغم الآلام التي كان قد جاز فيها، ورغم الآلام التي كانت ستغمره وهو مُعلَّق فوق الصليب.

لقد كسرت الآلام قلبه، لكنها لم تؤثر في شركته مع أبيه. ومع أنه كان مُحاطاً بالمهانة والظلم، فإنَّ هذا لم يَحُلْ دون ثقته ببنوّته للآب، وبمحبة الآب له «فقال يسوع: يا أبتاه». وكأنه في كل هذا يردد ما كان قد قاله في مرة سابقة «نعم أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرة أمامك» (مت١١:٢٦).

وكما قلت: هو درس لكل المؤمنين. فعندما تضيق بنا الحياة بعد سعةٍ، وتهوى بنا الآمال من عليائها، فماذا نفعل؟ أتخور عزائمنا أو يضعف إيماننا؟ أنخطئ بألسنتنا وننسب لله جهالة؟ أم ننطح برؤوسنا المشيئة الإلهية؟! هناك أشخاص عظام عندما ضغط الألم عليهم، أصاب اليأس والقنوط منهم مقتلاً فلعنوا -اليوم الذي وُلِدوا فيه، وسبّوا يومهم*. أما ذلك المبارك الفريد، رئيس الإيمان ومكمله، الذي تألم كما لم يتألم سواه، فعندما اسودّت أمامه صفحة الحياة رفع رأسه، وكانت أول عبارة تخرج من فمه هي «يا أبتاه».

علّق أحدهم على ذلك بالقول: "لو قُدِّر ليد الخالق العظيم أن تتخلى عن دفة الكون، فتنساق مصائر البشرية إلى بحر عجَّاج مُزبد بالتشويش والفوضى، لكان ذلك عندما سيق ذاك الذي هو تجسيد الجمال الأدبي ليموت كما يموت

---

* قارن أي٣: ١؛ إر ٢٠:١٥.

سفيةٌ أو أثيم". لكن المسيح في ذلك الوقت عينـــه، وقــد أحــاط بــه أعــداؤه المسعورون، وأحدق به من كل جانب الحاقدون، تحوّل عن هذا كله إلـــى الآب، مخاطباً إياه بالتعبير الذي يدل على الثقة والمحبة. وفي هـــذا أبلــغ الــدروس وأسماها لأولاد الله، ألا يفشلوا ولا ييأسوا. قد يتلبّد في الأفــق ســحاب أســود كثيف، ويبدو وكأنَّ الجو قاتم ومخيف. لا ترتَعْ من الأمر، ولا تفقــد الإيمــان، فإن الله حي يتبوأ عرشه، والرب في العُلى أقدر (مز٩٣: ٤).

صلاة لأجل الأعداء

لكن دعنا الآن نتحول إلى فكرة أخرى. نعم، شيء رائع أن المســيح فــي آخر لحظة يصلي، وفي ظروف كهذه يصلي لأبيه. لكــن لأجــل مَــنْ صلّــى المسيح؟ إنه لم يصلِّ لأجل نفسه بل لأجل الآخرين، وليــس لأجــل الآخريــن فقط، بل لأجل الأعداء، الأعداء الذين رفضوه من البداية، وأرادوا التخلص منــه بأي ثمن، والذين لم يكن يشفي غليلهم مجرد موته فقط، بل موته مصلوباً. وهــا هم قد مضوا به إلى الموضع الذي يُدعى جمجمة*، ونفّذت أياديهم الآثمــة مــا أرادت قلوبهم الأشد إثماً. فعندما يصلي لأجلهم المسيح، تُرى ماذا يقول؟ إنــه يقول: «يا أبتاه، اغفر لهم»!!

إننا عندما نتأمل في المعاملة القاسية التي عامل بها أولئك الأشرار ربَّ المجــد لا نتمالك أنفسنا، ولا نقدر أن نخفي احتقارنا لأولئك الأشقياء الذين داســوا ابــن الله، والذين قبلوا طواعية أن يكونوا آلة في يد إبليس. أولئك القســاة الذيــن لا

---

* إن موضع الجمجمة له هنا دلالة هامة، وهي أن الخطية جعلت الإنسان بلا عقــل «أمــا الرجــل ففارغ عديم الفهم، وكحجش الفرا يُولَد الإنسان» (أي١١: ١٢). فــهؤلاء الأشــرار أثبتــوا فــي كراهيتهم للمسيح ليس فقط أنهم بلا قلب، بل أيضاً بلا عقل.

قلب لهم، ماذا كان موقف المسيح منهم؟ وماذا كان رده تجاه كل ما بدر عنـــهم؟ لقد قال: «يا أبتاه اغفر لهم».

ما أعجبَ المصلوبَ في عُمق الألـمْ والبغضُ في الإنسانِ يقذِفُ بـــالحممْ
حينَ طَمَا المـــوجُ بتيـــارِ الغضـــبْ والغمرُ نادى الغمرَ في بحرِ خِضَـــمْ
عجباً يُصلّي إلـــى أبيـــه ويطلـــبُ مِنْ أجلِ مَنْ صلبوهُ عن حسدٍ وظُلـمْ
مِنْ أجلِ مَنْ أبدى العـــداوةَ ســـافِراً بالبصقِ في الوجهِ الكريمِ ومَنْ لَطَـمْ

أما كان بوسع ابن الله أن يجعل الأرض تفتح فاها وتبتلع أولئـــك الأشـــقياء أحياء؟! لقد كان -تبارك اسمه- موضع احتقارهم، وعلى أيديهم كـــان يتجـــرع من غُصص الألم ما نعجز عن وصفه، ومـــع ذلك ها هو يصلي قائلاً «يا أبتاه اغفر لـــهم»! فيا للنعمة الغافرة، والمحبة الغـــامرة! حقـــاً، مياه كثيرة لـــم تســـتطِعْ أن تطفـــئ المحبـــة والسيول لم تغمرها. إنها محبة مـــن النـــوع الإلهي: الذي يحتمل كل شيء، ويصبر علـــى كل شيء. لقد صدق واحد عندما قـــال: "لـــو أننا لا نعرف شيئاً عن المســـيح ســـوى هـــذه الصلاة الواحدة لرفعته فوق مستوى البشـــر، فإن سمُوَّها ونبلها لا يصـــدران مـــن إنســـان عادى. وصاحبها لا يمكن إلا أن يكون عظيماً، وابن العلي يُدعى"!

لـو أننـا لا نعـرف شـيئاً عـن المسـيح سـوى هـذه الصـلاة الواحدة لرفعتـه فـوق مسـتوى البشر، فـإن سمُوّهـا ونُبلـها لا يصـدران مـن إنسـان عـادى. وصاحِبها لا يمكن إلا أن يكون عظيماً، وابن العلي يدّعى.

إن أصعب شيء على الطبيعة البشرية هو الغفران. وطبيعتنا تجد في الانتقـــام من الأعداء ألذ الأطايب، وفي التشفي من المسيئين شفاء من الغيـــظ. تفكّـــر فـــي

شمشون مثلاً: لقد صلّى هو أيضاً لله في آخر لحظاته، وصلّى لأجل الأعداء. لكن ما أبعد الفارق بين صلاة شمشون، وصلاة ربنا يسوع المسيح. لقد طلب شمشون الانتقام من أعدائه بسبب عينيه، أما المسيح فطلب الغفران لصالبيه!

لكن دعك من شمشون الذي طلب الانتقام من الفلسطينيين أعداء شعبه وأعداء الله، وتفكّر في إرميا النبي الباكي رقيق القلب واسمع بعضاً من أقواله عن شعبه: «والرب عرفني فعرفت. حينئذ أريتني أفعالهم، وأنا كخروف داجن يُساق إلى الذبح ولم أعلم أنهم فكروا عليّ أفكاراً قائلين: لنهلك الشجرة بثمرها، ونقطعه من أرض الأحياء، فلا يُذكر بعد اسمه. فيا رب الجنود، القاضي العدل، فاحص الكلى والقلب، دعني أرى انتقامك منهم لأني لك كشفت دعواي» (إر ١١:١٨-٢٠)، ثم يقول: «افرزهم كغنم للذبح، وخصّصهم ليوم القتل» (١٢:٣). وفي مناسبة أخرى يقول: «ليخزَ طارديَّ ولا أخزَ أنا. ليرتعبوا هم ولا أرتعب أنا. اجلب عليهم يوم الشر واسحقهم سحقاً مضاعفاً» (١٧:١٨). ومرة أخرى يقول: «اذكر وقوفي أمامك لأتكلم عنهم بالخير لأرد غضبك عنهم. لذلك سلّم بنيهم للجوع، وادفعهم ليد السيف، فتصير نسائهم ثكالى وأرامل، وتصير رجالهم قتلى الموت، وشبانهم مضروبي السيف في الحرب. ليُسمَع صياح من بيوتهم إذ تجلب عليهم جيشاً بغتة» (١٨:٢٠-٢٢).

إن المسيح من فوق الصليب لم يعمل معجزات، لكن صلاته هذه هي أروع من أعظم المعجزات التي ميّزت طريقه وسط هذا العالم البائس: أن يغطي رؤوس قاتليه الفجار بغطاء غفرانه ليحميهم من عاصفة غضب الإله العادل!

هذا هو الإنسان الكامل الفريد. فعندما اسودَّت أمامه صفحة الحياة تماماً، تحوّل إلى الله، مخاطباً إياه: «يا أبتاه»، ثم عندما تلاطمت فوق رأسه أمواج الظلم من معذّبيه قال: «يا أبتاه، اغفر لهم»!

يسوع مثالنا الأعظم

يقول البشير لوقا: «ولما مضوا به إلى الموضع الذي يدعى جمجمة صلبوه هناك مع المذنبين، واحداً عن يمينه والآخر عن يساره. فقال يسوع: يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

وعندما يذكر لنا الوحي اسم «يسوع»، يريد أن يُذكِّرنا بذلك الإنسان (فيسوع هو اسمه الإنساني). إن ذلك الإنسان «يسوع» كان قد علّم الناس في بداية خدمته أسمى التعاليم وأرقى المبادئ، لا سيما في موعظة الجبل الشهيرة. وفي الإنجيل نفسه نقرأ جانباً من تلك الكلمات العظيمة: «أقول لكم أيها السامعون: أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم» (لو٦:٢٧،٢٨)، وختم المسيح موعظته هذه بالتنبيه على ضرورة العمل بكلامه لا الاستماع إليه فقط. لكن السؤال هو: هل عمل يسوع نفسه بهذه التعاليم، أم اكتفى بأن يلقّنها لغيره؟ لقد أتى قبل المسيح أولئك الذين جلسوا على كرسي موسى، وكانوا يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم، وكانت خلاصة مشكلة أولئك المرائين أنهم «يقولون ولا يفعلون» (مت٢٣:٣). وقبل هؤلاء أيضاً جاء فلاسفة الإغريق، وعلّموا البشر أيضاً تعاليم أخلاقية راقية، وكانت مشكلتهم أيضاً أنهم يقولون ولا يفعلون، إذ تواجههم كلمة الله بالقول: «لأنك في ما تدين غيرك تحكم على نفسك. لأنك أنت الذي تدين تفعل تلك الأمور بعينها!» (رو٢:١).

حقاً، كم يسهل علينا أن نردد أعظم التعاليم التي لم نختبرها! فهل كان المسيح هكذا؟ كلا ألف مرة! فالمسيح ليس فقط علّم الحق، بل كان هو نفسه الحق الذي علّمه. لقد عمل بما علّم، وعاش كما قال، وفعل ما نادى به. إنه لم يترك لنا فقط تعاليمَ إلهية، بل ترك لنا أيضاً مثالاً إلهياً. وتبرهنت بهذه الصلاة كلماته الرائعة

التي كان قد قالها سابقاً «أنا من البدء ما أكلّمكم أيضاً به» (يو٨:٢٥).

يسوع مصلياً! إنه الإنسان، وكلماته إنسانية تماماً، لكن فيها شموخ النُبـــل الإنساني الذي لم يعرفه أحد قبله. «أحبوا أعداءكم... وصلّـــوا لأجـل الذيـن يسيئون إليكم» يا للمستوى الراقي! صحيح، لقد صلّى إبراهيم خليل الله لأجـــل أهل سدوم الخطاة، لكنه صلّى لأجلهم من أجل لوط ابن أخيه. وصلّى موســـى كليم الله لأجل الشعب المخطئ، لكنهم أيضاً شعبه. لكن مَـــنْ قبْـل مسـيح الله صلى لأجل أعدائه؟ وإن كان شهداء المسيحية ساروا بعـد ذلـك علـى نـهج المسيح القدوة، كما فعل مثلاً استفانوس الشـــهيد (أع٧:٥٩،٦٠)، فإنمـا يظـل المسيح هو الأصل والمصدر*، والكل تعلّموا منه، كما أنه لم يبلغ أحـــد القمـة نظيره. إنه بحق نموذج للصفح عن الإساءة، ودمه فعلاً «يتكلّـم أفضـل مـن هابيل» (عب١٢: ٢٤)، فدم هابيل، الشهيد الأول، صرخ إلى الله يطلـب نقمتـه من أخيه، أما "يسوع"، الشهيد الأعظم، فقد طلب من الله الصفح لصالبيه!

وإذا رجعنا إلى إشعياء ٥٣، حيث النبوة الشهيرة عن آلام المســـيح، نجـد نحو عشر نبوات تمت بدقة فائقة في المسيح الذبيح. وآخر نبوتين فيـــها همـا «وأُحصيَ مع أثمة، وهو حمل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين».

«أُحصيَ مع أثمة»: هذا ما فعله البشر به إذ صلبوه مع المذنبين واحـداً عـن يمينه والآخر عن يساره. لكنه هو «حمل خطية كثيرين، وشفع فـــي المذنبيـن»، وهذا ما فعله هنا عندما قال: «يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

نعم، إنَّ آخر ما عندهم قدموه له إذ صلبوه. فقدَّم هو لهم أول ما عنـــده إذ تشفع لأجلهم. فعندما أفرغوا ما في جعبتهم، بدأ هو - تبارك اسـمه - يفيـض

---

* يلفت النظر أن استفانوس صلّى لأجل نفسه أولاً، ثم بعد ذلك صلّى لأجل قاتليه، أما المسـيح فكـانت أولـى عباراته من فوق الصليب هي صلاة لأجل قاتليه، وآخر عباراته (العبارة السابعة) هي صلاة لأجل نفسه!

بالجود. فختام أصحاح الآلام (إش٥٣) يشير إلى هذه الصلاة التي هي أولى عبارات المسيح فوق الصليب.

والآن ماذا بالنسبة لنا؟ لقد ترك لنا المسيح مثالاً لكي نتبع خطواته، ونحن اليوم نمثل المسيح في هذا العالم الهالك، فهل نصلّي نحن لأجل الآخرين؟ يقول الرسول «فأطلب، أول كل شيء، أن تُقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس» (١تي٢:١).

إنّ آخِرِ ما عندهم قدموه له إذ صلبوه. فقدّم هو لهم أول ما عنده إذ تشفع لأجلهم. فعندما أفرغوا ما في جعبتهم، بدأ هو يفيض بالجود.

ألا ليت المؤمنين اليوم تكون لهم رؤى مباركة تجاه العالم المذنب الأثيم، نظير تلك التي كانت للمسيح يوم صلبه، فهكذا فعل الرسول بولس يوم محاكمته أمام أغريباس، عندما أذن الملك له أن يتكلم لأجل نفسه، فلم ينشغل بنفسه قط، بل تكلم لأجل اهتداء الآخرين، وختم حديثه بالقول «كنت أصلي إلى الله أن... جميع الذين يسمعونني اليوم، يصيرون هكذا كما أنا، ما خلا هذه القيود» (أع٢٦:٢٩).

لقد كان المسيح في ذلك اليوم محاطاً بالأعداء الأشرار الذين تطاولوا عليه، لكنه صلى لأجلهم. فماذا نحن فاعلون إذا تقابلنا مع من لا يعلمون ماذا يقولون، ولا على من يفترون، أو من ينكرون؟ ألعلنا نظير ابني الرعد نطلب ناراً من السماء تفنيهم (لو٩:٥٤)؟ أم أننا كسيدنا نصلي لأجلهم؟!

دعنا نلاحظ هذا:

- يقول الرسول «ليس أحد منّا يعيش لذاته، ولا أحد يموت لذاته» (رو١٤:٧). والمسيح على الصليب لم يكن يموت لذاته، وكلماته الأولى لم تكن صلاة لنفسه. هكذا ينبغي أن تكون صلاة الكنيسة اليوم «أول كل

شيء» لا لنفسها بل «لأجل جميع الناس».

☜ ونلاحظ أن صلاة المسيح هنا لم تكن لأجل الآخرين فقط بـــل الظـــالمين المفترين أيضاً. وعندما كتب بولس أن تُقام صلوات لأجل جميع النـــاس، أضاف قائلاً «لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب». وكـــان ذلـــك على عهد نيرون الطاغية الذي قتل بولس في ما بعد. المسيح هنا يصلـــي لأجل قاتليه، وبولس يعلمنا الصلاة لمن كان سيقتله!

☜ ثم نلاحظ أيضاً أن صلاة المسيح للآب كانت لأجـــل غفـــران الخطايـــا. وينبغي أن تكون رسالة الكنيسة: خدمتها وصلواتـــها، متجهـــة لخـــلاص نفوس الهالكين وغفران خطاياهم. «لأن هذا حسن ومقبول لدى مخلِّصنـــا الله، الذي يريد أن جميع الناس يخلصون» (١تي٢: ٣،٤).

فإن نحن فعلنا ذلك لا نكون فقط قد تبعنا مثـــال المســـيح وصلاتـــه فـــوق الصليب، بل أيضاً سعينا لإتمام غرض المسيح من موته على الصليب.

شفاعة المسيح وأساسها

لقد كان المسيح هو الشخص الوحيد الذي لم يقُل قط: "يا أبتـــاه اغفـــر لـــي". فهو – تبارك اسمه – لم يكن محتاجاً أن يقول ذلك لأنه البار الوحيد الـــذي عـــاش على الأرض، والوحيد الذي لم يعرف خطية. وكونه البـــار جعلـــه مؤهَّـــلاً لأن يكون الشفيع الذي يتوسل لأجل المذنبين. فما كان يصلح أن يتشفَّع مذنـــبٌ. فـــي إشعياء ٥٣، قبل أن يحدثنا عن شفاعته في المذنبين، يقول «وعبدي البار بمعرفتـــه يبرر كثيرين»، فشفاعته في المذنبين مبنية على أساس مبدئي من برِّه الشخصي.

لكن هناك أيضاً شيئاً آخرَ هاماً ليمكنه أن يكون الشفيع. فالرب لمَّا كان علـــى الأرض لم يقل ولا مرة واحدة «يا أبتاه، اغفر لهم»، إذ كـــان هـــو نفســـه يغفـــر

الخطايا بسلطانه. حدث هذا في حياته على الأقل مرتين: المرة الأولى مع المـــرأة الخاطئة في لوقا ٧، والمرة الثانية مع الرجل المفلوج في مرقس ٢. في المرتيـــن اعتبروه مجدِّفاً لأنهم قالوا «من يقدر أن يغفـــر خطايـــا إلا الله وحـــده؟»، وهـــي ملاحظة في محلها، لكن ما بَنَوه عليها من استنتاج كان خاطئاً تماماً. فصحيح أنّـــه لا يقدر أحد أن يغفر الخطايا إلا الله، لكن مشكلتهم أنهم لم يروا فيه عمـــانوئيل «الله معنا»، فاستنتجوا أنه مُضِلٌّ ومُجدِّف، وكان استنتاجهم هو التجديف وهو الضلال.

ونلاحظ أن المسيح لما غفر خطايا المفلوج علق على هذا بـــالقول «لكـــي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايـــا» (مـــر٢: ١٠). نعم، لما كان على الأرض كان له السلطان أن يغفر الخطايـــا، أمـــا الآن وقـــد ارتفع عن الأرض بالصليب، فإنه كان يدفع حساب الخطايا. لهذا فإنه لم يقـــل "أنا أغفر لكم"، بل قال «يا أبتاه، أغفر لهم». لقد كان المسيح في ذلـــك الوقـــت ممثِّلاً للبشرية، وكان آخِذاً مكان البشر الآثمين. فكـــأن المســـيح وهـــو علـــى الصليب يقول للآب: "اغفر لهم وأنا مستعد لدفع الحســـاب. إن ظلمـــهم الـــذي ظلموه، والدين الذي عليهم، احسبه علي وأنا أوفي" (قارن فل١٨، ١٩).

إذاً فهناك شرطان ليكون الشخص شفيع الخطاة: *أولاً* أن يكون هـــو بـــاراً، *وثانياً* أن يتحمل أجرة خطاياهم وقصاصها. وهو عين ما نقـــرأه فـــي إشـــعياء ٥٣: ١١، ١٢ «وعبدي البار بمعرفته يبرِّر كثيرين»، ثم «وآثامهم هو يحملـــها». من ثَمَّ أمكنه أن يقول في النهاية «شفع في المذنبين».

هذا يجعلني الآن أشير إلى أهمية بركة غفران الخطايا. قال داود «طوبـــى للذي غُفر إثمه وسُتِرت خطيته» (مز ٣٢: ١). إن أعظم بركة يمكـــن أن ينالـــها الإنسان هي بركة غفران خطاياه. ما قيمة أن تكون ملكاً أو عظيمـــاً أو عالِمـــاً إن لم تكن متمتعاً قبل كل ذلك ببركة غفران الخطايا. إنه حقاً ســـعيد ومغبـــوط ذاك الذي غُفرت خطاياه، وعرف ذلك.

قال داود في مزموره الشهير وهو يعدد حسنات الرب «بـــاركي يـــا نفســـي الرب ولا تنسي كل حسناته. الذي **يغفـر جميـع ذنوبـك**. الـذي يشـفي كـل أمراضك. الذي يفدي من الحفرة حياتك. الذي يكللك بالرحمة والرأفـــة. الـذي يشبع بالخير عمرك فيتجدد مثل النسر شـــبابك» (مـز١٠٣: ١-٥). هنـا سـت حسنات، لكن على قمتها جميعاً ذلك الإحسان العظيم «الذي يغفر جميع ذنوبك».

والرب، كما أشرنا، قبل أن يقول للمفلوج «قم احمل سريرك وامشِ»، قال لـــه أولاً «مغفورة لك خطاياك». فما أعظم أهمية غفران الخطايا! إنـــه أول احتيـاج للإنسان، وأول بركة للمؤمن. لهذا كان هو أيضاً أول نطق للمسيح على الصليب.

ما أعظم أهمية غفران الخطايا! إنـه أول احتيـاج للإنسـان، وأول بركة للمؤمن. لهذا كان هـو أيضـاً أول نطـق للمسـيح على الصليب.

والغفران في المسيحية ليس مبنياً على غـــير أساس، ولا هو مبني على رحمة الله فحســب دون عدله وبرّه. إنه مبنـــيٌّ علـى أســاس احتمال المسيح للعقوبة ودفعه للغرامة. «فـإن المسيح أيضاً تألم مـــرة واحـدة مـن أجـل الخطايا، البار من أجل الأثمة، لكي يقرّبنا إلـى الله» (١بط٣: ١٨). لقد صُلِبَ المسيح ليمكنـه أن يغفر خطايانـــا. فـلا عجـب أن ينطـق المسيح، أول ما ينطق، بهذه العبارة العظيمة «يا أبتاه أغفر لهم».

قال الرسول بولس في أعمال ١٣: ٣٨ «ليكن معلوماً عندكم أيـــها الرجـال الإخوة، أنه بهذا (أي بهذا الشخص الذي هو المســـيح) يُنـادى لكـم بغفـران الخطايا». وقال الرسول يوحنا أيضاً «أكتب إليكم أيها الأولاد، لأنه قد غُفـرت لكم الخطايا من أجل اسمه» (١يو٢: ١٢). فهل أنت أيها القارئ العزيز متمتـع بهذه البركة العظيمة التي يقدمها الله لك مجاناً على حساب عمل المسيح لأجلـك على الصليب؟ ليت هذا يكون من نصيبك اليوم، بل الآن!

سموُّ صفات اللّٰه!

إن عبارة المسيح الأولى من فوق الصليب تُبرِز لنا جانبين من الحق. فمن الجانب الواحد تبرز لنا سمو صفات الله، ومن الجانب الآخر تبرز عمق جهل الإنسان وقوة تأثير الشيطان فيه.

نعم، ما أعجب **محبة الله** التي نراها في هذا القول «اغفر لهم... لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون»! فالإنسان المجني عليه عادةً لا يرى في القضية وظروفها إلا أدلة الإدانة ضد الطرف الآخر. أما المسيح فبينما كان أعداؤه يوجعونه بالإساءات، كان هو – تبارك اسمه – يلتمس لهم المعاذير. فما أعجب محبة المسيح التي كانت بيان محبة الله غير المحدودة للخطاة! (رو٥:٨).

وترينا هذه العبارة أيضاً **رحمة الله** التي ليس لها حدود. فمَنْ أولئك الذين كان المسيح يقصدهم بقوله «لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون»؟ ربما تقول إنه كان يقصد العسكر الرومان الذين قاموا بعملية الصلب ذاتها، لأن هذه العبارة قالها المسيح بعد قيام العسكر بصلبه مباشرةً، ولأن أولئك العسكر كانوا الأقل ذنباً بين قاتلي المسيح لأنهم أمم لا يهود، ولم تكن بين أيديهم التوراة التي تحدّثهم عن مسيح الله، ثم لأنهم كانوا يقومون بعملهم تنفيذاً لأوامر صدرت إليهم من جهات عُليا. بالتأكيد كان المسيح يقصد العسكر، لكنه كان يقصد غيرهم أيضاً. وعندما نصل إلى سفر الأعمال، الأصحاح الثالث، نجد بطرس يتكلم بالروح القدس إلى اليهود فيقول «أنا أعلم أنكم **بجهالة عملتم** كما رؤساؤكم أيضاً». ومن بين اليهود الأشرار برز شاب متعصّب اسمه شاول الطرسوسي قال عن نفسه إنه كان مجدفاً ومضطهداً ومفترياً؛ ثم أردف قائلاً «لكنني رُحِمت، لأني **فعلت بجهل** في عدم إيمان» فيا لرحمة المسيح الذي يعتبر صالبيه قاتلي نفس

سهواً؛ ويعتبر أن في فعلتهم هذه لم يكن أي عمد* على الإطلاق!

ثم إن هذه العبارة تحدثنا أيضاً عن **أناة الله**. «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون». إنهم في حاجة إلى غفران. والحاجة إلى غفران تتضمن مُذنِبِيَّتهم (اعتبارهم مذنبين)، لكن لكي يتم الغفران تلزم توبتهم أولاً. وكأن المسيح بصلاته هذه أعطاهم فرصة للتوبة، وأتاح لهم الفرصة ليسمعوا الكرازة فتستيقظ ضمائرهم. ولولا أن الله سمع صلاة المسيح هذه لَشقّ الأرض من تحت أقدامهم وجعلها تبتلعهم أحياء ولانتهى كل شيء بالنسبة لليهود في ذلك اليوم. لكن يا لأناة الله! فلقد نعمت أورشليم الشريرة العاصية بأن تسمع أخبار قيامة المسيح، ويُنَادَى فيها، وعلى مدى أربعين عاماً، بأخبار الإنجيل المفرحة، وترن في جنباتها أنغامه الشجية، قبل خرابها على يد تيطس الروماني.

أكان أولئك الأشرار القتلة يستحقون هذه الصلاة؟ كلا، لقد كانوا على العكس يستحقون القضاء واللعنة. وأغلب الظن أنها مرت على أسماعهم في يوم الصلب دون اكتراث، أو ربما أصبحت مادة جديدة لسخريتهم واستهزائهم. لكنه هو وجهها إلى الله، والله سمعها. كأن المسيح هنا كرر نفس ما قاله في مثل شجرة التين العقيمة، والتي أراد المالك أن يقطعها، فقال له الكرّام «يا سيِّد، اتركها هذه السنة أيضاً» (لو١٣:٨). هكذا المسيح هنا كأنه قال لله "تمهل على أولئك الأشرار وامنحهم فرصة أخرى، لعلهم يتوبون ويرجعون فأخلّصهم".

لكننا أخيراً نرى في هذه العبارة مقياس **قداسة الله**. «اغفر لهم... لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون». وهذا معناه أنه حتى خطايا الجهالة والسهو تحتاج إلى غفران، وتحتاج إلى كفارة، وهو ما يُظهِر سمو مقياس قداسة الله وبره،

---

* بهذه الصلاة، إذ اعتبر المسيح خطية أولئك الأشرار ليست خطية عمدية، فقد فتح أمامهم باب مدينة الملجأ باعتبارهم قاتلي نفس سهوا. وهو الباب الذي دخله كثيرون من اليهود قبل أن يدركهم الغضب إلى النهاية (قارن عد٣٥: ٩-٣٤؛ أع٣: ١٧-١٩؛ عب٦: ١٨).

وبالتالي عُظم احتياجنا نحن. فإن كانت خطايا السهو يحاسِب اللهُ عليها، فمـــاذا عن العمد؟! وبالإجمال ماذا نحن فاعلون أمام الله الذي هذا مقيـــاس قداســته؟ «مَنْ مِنَّا يسكن في نار آكلة؟! من منا يسكن في وقائد أبدية؟!» (إش٣٣: ١٤).

عمق شر الإنسان

لكن صلاة المسيح هذه تُبرِز من الجانب الآخر شيئاً مهماً آخــر، هــو عمــق جهل الإنسان وقوة تأثير الشيطان فيه؛ «يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون مـــاذا يفعلون». أيمكن أن يفعل الإنسان العاقل ما لا يعلمه؟ نعم، بكل أسف هذا هو مـــا حدث فعلاً عند الصليب، وهو نفسه يحدث اليوم أيضاً. ويعلِّمنا الكتاب المقــدس أن إله هذا الدهر (أي الشيطان) قد أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضيء لهم إنـــارة إنجيل مجد المسيح. وكم هي قاسية قوة الشيطان في تضليل البشر، حتى إنهم لمـــا أتاهم نور العلم لم يروه، ولما أتاهم ابن الله الكريم لـــم يُقــدِّروه، ولمَّـــا ارتكبــوا الجريمة الأفظع والأشنع، ألا وهي جريمة صلبه، لم يعلموا ماذا هم فاعلون!

ولهذا فإن الرب اليوم – في صلاحه – لا يوجِّه بشارة الإنجيل فقط للذيـــن يعرفونه بالاسم، إلى مرتادي الكنائس ومعتادي الذهاب للاجتماعات الدينية، بـــل إنه يوجهها أيضاً إلى كل من تمادوا في البعد عنه حتى انطبق عليهم القـــول «لا يعلمون ماذا يفعلون»، بل إنه يرسل ضياء إنجيله إلى حيث يوجد الظلام، ويُشــع بضياء معرفته حيث يسود الجهل، وكلماته العجيبة ما زالت أصداؤها ترن إلـــى الآن «اغفر لهم... لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

هل وصلت هذه الكلمات إلى إنسان يعادي المسيح لغير سبب؟ إن صـــلاة المسيح هنا تضمن لك البركة والخلاص. فـــهذه الصـــلاة أظــهرت فاعليتــها العجيبة بعد النطق بها مباشرةً، إذ خلَّصت أحد اللصين اللذين صُلِبا مع المســيح،

كما خلَّصت ثلاثة آلاف من اليهود في عظة واحدة حسبما ورد في أعمال ٢، نقول إن هذه الصلاة العجيبة ما زالت فعَّالة حتى اليوم، وما زال الله يستجيب لها في آلاف الذين يرجعون إلى الله يوميا.

هذا يجعلني أختم تأملاتي في هذه العبارة المجيدة التي نطق بها المسيح من فوق الصليب بهذه الأسئلة المحددة: إن كان المسيح، وهو فوق الصليب، قد صلَّى طالباً الغفران لأجل من تمادَوا في الشر فوق التصور، وجاوزوا في العداء له كل الحدود، إذ صلَّى لأجل صالبيه أنفسهم، فهل يبقى لدينا أي يأس من جهة خلاص أي إنسان مهما كان شره؟ إنه لو كانت هناك لحظة ممكن أن تتوقف فيها توسلات المسيح لأجل المذنبين، لكانت هي تلك اللحظة التي قام فيها الأشرار بتعليقه وتسميره على الصليب، عندما قاموا في وحشية بهذا العمل الفظ الرهيب. فإن كان الرب قد نطق بهذا القول العجيب في ذلك الوقت، فلماذا تؤجل الرجوع إليه ولو لحظةً أخرى؟ لماذا «تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة»؟

إن الرب اليوم لا يوجِّه بشارة الإنجيل فقط لمرتادي الكنائس، بل إنه يوجهها أيضاً إلى كل من تمادوا في البعد عنه حتى انطبق عليهم القول لا يعلمون ماذا يفعلون.

نعم، إنهم لا يعلمون. وما زال العالم إلى اليوم يغطُّ في ظلمة الجهل ولا يعلم حقيقة شخص المسيح، وحقيقة صلب ابن الله، ولماذا صُلب. لكن لبيتك أنت أيها القارئ العزيز تسرع إلى المسيح بالتوبة القلبية الصادقة وبالإيمان الحقيقي.

العبارة الثانية من فوق الصليب

كلمات الترفُّق

وكانت واقفات عند صليب يسوع، أمه، وأخت أمه، مريم زوجة كلوبا، ومريم المجدلية. فلما رأى يسوع أمه، والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً ،قال لأمه:

يَا امْرَأَةُ، هُوَذَا ابْنُكِ.

ثم قال للتلميذ:

هُوَذَا أُمُّكَ.

ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته.

(يوحنا ١٩:٢٥-٢٧)

نساء عند الصليب

رأينا، ونحن نتأمل في كلمات المصلوب الأولـــى، شـــخص ربنـــا يســـوع المسيح وهو وسط أناس أشرار وخطاة، ساموه ألوان العذاب، ثم سمّروه معلّقيـــن إياه على الصليب، فجاءت عبارته الأولى، عبـــارة الصفـــح وطلـــب المغفـــرة لصالبيه، وقال: «يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

ولكن وسط موجة الحقد والشماتة المكتسحة، نرى مشـــهداً آخـــر مختلفـــاً تماماً، متمثلاً في جماعة صغيرة تقف إلى جوار المتـــألم القـــدوس وهـــو فـــي لحظاته الأخيرة. إنه مشهد "نساء عند الصليب" يرفعن عيونهن الدامعـــة نحـــو المصلوب ناطقة بكل معاني الولاء والوفاء.

كانت الجلجثة في ذلك اليوم مكتظّة بالناس أشكالاً وألواناً. كثـــيرون أتـــوا بدوافع مختلفة متباينة: مِنهم مَن أتى بدافع الفضول وحب الاســـتطلاع، ومِنـــهم مَن جاء بدافع التشفي والشماتة، ومِنهم مَن كان يؤدي مهمة. أما هذه الجماعـــة فأتت بدافع المحبة والوفاء.

كانت هذه الجماعة تتكون من أربع نساء*، وكان معهن يوحنا الحبيب تلميذ المسيح الوفيّ. أما النساء الأربع فهن: مريم أم يسوع، وأخت أمه (وهي على الأرجح سالومي أم يعقوب ويوحنا ابني زبدي. ولم يذكر يوحنا اسمها، فكما تحاشى ذكر اسمه تواضعاً منه هكذا أيضاً تحاشى ذكر اسم أمه)، والمرأة الثالثة هي مريم زوجة كلوبا، والرابعة مريم المجدلية.

شبَّه أحدهم هذه الجماعة الصغيرة التي عند صليب يسوع وسط جمهور الفجار بشجيرة ورد صغيرة تطل بين أشجار الشوك والعوسج**، وهي كأكاليل الزنبق البديعة الطاهرة تحيط بصليب المخلِّص الذي يدنو من الموت.

وللنساء الحق أن يفتخرن على الرجال لِما أظهرنه في حياة المسيح وفي موته. فلا نقرأ عن امرأة خانت المسيح أو أنكرته، ولا امرأة أهانت المسيح أو قاومته. بل على العكس، فبينما هرب تلاميذه الرجال كلهم، كان عند الصليب أكثر من امرأة. إنهن كن آخر من غادر المشهد في غروب يوم الصليب، كما كُنَّ أول من ذهب إلى القبر في فجر يوم القيامة.

أوليس هذا عجباً، أن يلوذ الرجال بالفرار وتبقى النساء صامدات؟! حقاً «قُسِيَّ الجبابرة انحطمت، والضعفاء تمنطقوا بالبأس» (١صم٢:٤).

تأمل أيها القارئ العزيز ماذا تستطيع النعمة أن تعمل للضعيف

---

* هناك من يعتقد أن هذه الجماعة كانت تتكون من ثلاث نساء فحسب هن مريم أم يسوع، وأخت أمه، وهي بعينها مريم زوجة كلوبا، ثم مريم المجدلية. لكننا نستبعد أن أختين يكون لهما الاسم ذاته. ونفضل أن نقرأ هذه الأسماء باعتبارها مذكورة اسمين اسمين: المجموعة الأولى مريم أمه وأخت أمه، والثانية مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية.

** يلفت النظر أن يوحنا ذكر هؤلاء النساء الأربع مباشرة بعد أن أشار إلى الأربعة عساكر الذين صلبوا يسوع، ثم اقتسموا ثيابه بينهم وعلى لباسه ألقوا قرعة. فحقاً ما أشد المباينة بين جماعة وجماعة!

وبالضعيف! فها صاحِياتُ القلوب الواهنة الضعيفة يقفن في ثبات وشجاعة إلى جوار «مكروه الأمة»، لا يعبأن بالإهانة التي قد تلحقهن، ولا بالخطر الذي قد تتعرض له حياتهن، لعلهن يستطعن تخفيف أحزان «المهان النفس» وآلامه، فإن ذلك المصلوب كان بحق هو محور حياتهن.

قد يقول أحدنا إنه كان أيسر على النساء في ذلك اليوم العصيب الوجود في مكان الصليب. وقد يكون لهذا القول نصيب من الصحة، لكن الشيء الجميل أنهن استخدمن تلك الإمكانية استخداماً حسناً. وما أجمل أن يبادر الواحد منا ليعمل الحسن الذي يعرفه، فإن «مَنْ يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل، فذلك خطية له» (يع٤:١٧).

أمه كانت عند الصليب

ومن بين هؤلاء النساء الأربع اللاتي وقفن عند الصليب سنركز حديثنا على شخصية واحدة هي أم ذلك المصلوب، التي هي بحق الأم المثالية لكل الأجيال ولكل الأجناس. لقد تخاذل تلاميذ المسيح وهربوا، لقد تخلى عنه أصدقاؤه ومحبوه ووقفوا تجاه ضربته، لقد تنكرت له أمَّته واحتقرته مفضِلةً باراباس القاتل عليه. أما أمه، فهل يمكنها أن تهرب منه أو تتنكَّر له؟ حاشا بل ها هي قريبة منه في موته كما كانت في مولده.

وقصة المطوَّبة مريم هي قصة امتزج فيها الشرف والمجد بالمعاناة والألم. فمن بداية الرواية، لمَّا ظهر لها الملاك جبرائيل وبشَّرها، يذكر لنا البشير لوقا أنها «اضطربت من كلامه، وفكّرت: ما عسى أن تكون هذه التحية». ولكن اضطرابها وأفكارها في ذلك اليوم كانت فقط مقدمة لاضطرابات وأفكار

ومعاناة كثيرة لحقت بعد ذلك.

أيمكن أن ننسى نظرات الشك والريبة في أمرها من جميع عارفيـــها؟ حتـــى خطيبها يوسف أراد تخليتها سراً، لولا ظهور ملاك السماء له. ثم أننسى بعد ذلـك، يوم حان موعد ولادة الطفل، إذ لم يكن لهما موضع في المنزل فولدت الوليد العظيـم ووضعته في مكان لا يليق ببشر، بل في مكان للبهائم؟ ثم أننسى كيـف اضطـرت بعد الولادة أن تهرب بالصبي يسوع إلى مصر، إذ طلب هيرودس أن يقتله، فقاسـت في مصر قسوة الاغتراب بين قوم لا تعرفهم دون ذنب فعلت أو جريرة؟

ومرت الأعوام، وخرج السيد العظيم للخدمة الجهاريـة، وطبقـت شـهرته الآفاق، والأم تترقب تحقيق وعد الملاك بالعرش والمُلك. لكنها أيضـاً كـانت تتابع الموقف العدائي الملتهب الذي وقفته أمّته منه. لقد سمعت باحتقار الأمـة له، وعدائها نحوه، ووعيدها ومؤامراتها، وقلب الأم يخفق إشفاقاً وترقباً.

بالإجمال نقول إنه لم تعرف أم غبطة نظير غبطة المطوبة مريـم، كمـا لـم تقاسِ أيضاً أم نظيرها آلاماً ومعاناة على مدى حياتها، فكم بـالأحرى الآن وهـي عند الصليب! لعلها تذكرت أنه من أكثر من ثلاثين عاماً خلت، وهي ما تزال فـي أيام شبابها، عندما حملت على ذراعيها وليدها فخورة ومعتزة بـه، سـمعت مـن سمعان البار كلاماً نبوياً غريباً إذ قال «إن هذا قد وُضِع لسقوط وقيام كثيرين فـي إسرائيل»، ثم قال لها «**وأنت أيضاً يجوز في نفسك سيف**» (لو٢:٣٥). والأرجـح أنها لم تفهم معنى كلماته وقتذاك. ولعلها تفكرت كثيراً، في ما بعد، ما عسـى أن تعنيه نبوته هذه. أما الآن، وهي إلى جوار الصليب، فقد عرفت كل شيء.

لقد استيقظ سيف رب الجنود علـى راعـي إسـرائيل ليضـرب المسـيح (زك١٣:٧)، لكن في الوقت نفسه كان هناك سيف آخر يجتـاز فـي أحشـائها وهي بجوار ذيّاك الصليب.

أحزان بحر المر

لعلك لاحظت، عزيزي القارئ، أنه من بين النساء الأربع اللائـــى كـن عنـد الصليب كانت ثلاثة منهن باسم مريم، الاسم الذي يعنى مـــرار. فيقـال إن مريـم بالعبري هي كلمة من مقطعين: المقطع الأول بمعنى مر، والمقطـــع الثـاني "يـم" بمعنى بحر. فمريم تعني، كما يرى البعض، "بحر المر". ولقد كان عنـــد صليـب يسوع مرار مثلث، وهؤلاء المريمات كن يتجرعن المرار والعلقم في أفظع صـــوره، إلا أن المرار الذي كانت فيه أم يسوع كان أشد أنـــواع المـــرار، وذلـك للأسـباب الأربعة الآتية:

أولاً: إنَّ من أصعب الأمور علـــى قلـــب الأم أن ترى ابنها يموت. فأي أم ترجـــو أن ابنها هو الذي يواريها الـــتراب. لكـــن أيـــة كلمات تصف لنا حزن أم الرب وهي تنظـــر إلى ابنها يموت مُعلَّقاً على صليب! إن يسـوع لم يكن مجرّدَ ابنٍ وفيّ، بل كان هـــو كمـــال الكمال في كل شيء. إنه لم يفعل شيئاً ليـــس في محله، ولم يـــترك شـــيئاً فـــي محلـــه إلا وعمله. إنه، بين البنين، «كالتفاح بين شـــجر الوعر». وتلك التي كانت تفخر بأنها أمه، كيف لا يخترق الســـيف أحشـــاءها وهي تراه يموت أمام عينيها؟

نعم، مَنْ يقدر أن يقدّر حجم الكارثة الدهماء التي ألمت بالمطوّبة مريم وهي ترى ابنها بين أيدي أعداء عتاة، يقاسي الهوان ويتجرع الموت وهو فوق صليب العار، وهي تراه يموت وتفجر عن مواساته.

ثانياً: لم يكن المسيح مجرد شخص نبيل تفخر به أي أم فحسب، بـــل لقـد كانت أمه، قبل أي شخص آخر، تعرف حقيقة أصله ومقدار عظمته. لقد قـــال

لها الملاك جبرائيل يوم أن بشّرها بولادته «هذا يكون عظيمـــاً، وابـــن العلـــي يُدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبـــد، ولا يكون لمُلكه نهاية». أمّا الآن قلها أن تتساءَل بقلبها الكئيب، وهـــي تشـــاهد شمسه تغيب: أين تلك العظمة المُتنبَأ عنها؟ وأين ذلك العرش وذلك الملكـــوت؟ أيكون الملاك قد خدعها؟ أتقول مع أيوب في بلواه: «فأين إذاً آمـــالي؟ آمـــالي مَنْ يعاينها؟». نعم لقد زاد من قسوة الحزن على موت ابن بـــار، أنـــها كـــانت تحت وقع أمل ينهار، والجُرح عميق، والسيف بتّار!

ثالثاً: لكن حُزن قلبها المكلوم قد تضاعف لشيء ثـــالث: فليـــس أن ابنـــها يموت فقط، وأن العظيم وابن العلي «يُقطع وليس له»: أي ليس له شيء علـــى الإطلاق. نعم لم يكن ذلك فحسب، بل ها إنه يمـــوت ميتـــةً كـــهذه. يمـــوت مصلوباً على خشبة، أي يموت موت اللعنة، ويُحصَى مع أثمـــة. ويُعـــيَّر مـــن القادة والعامة بأشنع العبارات في مسمعه ومسمعها أيضاً. نعم، مَـــنْ يقـــدر أن يُقدّر حجم الكارثة الدهماء التي ألمّت بالمطوَّبة مريم وهي ترى ابنها بين أيـــدي أعداء عُتاة، يقاسي الهوان ويتجرع الموت وهو فوق صليب العار.

وأما رابعاً: فهي تراه يموت وتعجز عن مواساته. وهنا أقتبـــس كلمـــات آخَر قال: "ها دماؤه تنزف من جبينه وهي لا تقوى على تجفيفها. حلْقه يبس، وتحـــس بحاجته إلى الشُرب، لكن غير مُصرّح لها أن تُبلّله بقطرة ماء. يداه، تلـــك اليـــدان اللتان أمسكت بهما في طفولته، وقدماه اللتان درّجتهما في أولى خطواته، ها هـــي الآن مُسمّرة بالمسامير. وثغره الباسم التي كانت هـــي أول مـــن طبعـــت عليـــه قبلات فمها، ها هو الآن في حالٍ آخر. وها الجبين الوضّـــاح تعلـــوه الأشـــواك والجراح. بالإجمال «كان منظره كذا مُفسداً أكـــثر مـــن الرجـــل» (إش٥٢: ١٤). إنها تُحس بوخزات المسامير، وتلك الأشواك التي طوّقـــت رأســـه كـــانت كأنـــها

غلالة من لهب حول قلبها هي. وتعبيرات المُعبِّرين جرحتها هي مثلما جرحته".

بيــنَ الجمــوعِ الزاحفــةْ أمِّ هُنــــالِكَ واقفــــةْ
بــالحزنِ حــاكت ثوبَــها والنفــسُ فيــها راجفــةْ
ساقوا ابنَــها للذبــحِ فــي غــدرٍ وقلــبٍ قــدْ جَفــا
نظَــرتْ إليــهِ حزينــةً تبكــي بعيــنٍ آســفةْ
صلَبوا الذي بالخبزِ أطــ ـعَمَهُم ومرضَــاهُم شــفى
كــان الرجــاءُ بِــكَ بُنــيَّ وها الرجــاءُ بِــكَ انطفــا

إن المطوّبة مريم على مثال ابنها البار، هي أيضاً مُختبرة الحَــزَن. ومــع أنها كانت تُعاني هذا الشَجَن المُذيب، فمع هذا لا نراها في حُزن هســتيري ولا في نوبات تشنّج: لا نقرأ عن لطماتها ولا عن صرخاتها، ولا نقرأ أنــها كــانت منهارة، بل يقول البشير: «وكانت واقفات عند صليــب يســوع مريــم أمــه». كانت تعاني حزن روحها العميق في صمت!

ماذا لو كانت هربت لكي لا ترى هذا المنظر؟ ماذا لــو خــارت قواهــا؟ ماذا لو سقطت مغشيّاً عليها؟ يقيناً كنا سنلتمس لها المعاذير والأسباب القويــة. لكنها إذ رأت أنها لا تستطيع أن تخفف من آلامه، فإنها على الأقــل لا تزيدهــا إذا رآها منهارة، وقد فارقتها قواها. لذا نقرا أنها كانت واقفة!

إن يعقوب، الرجل، لم يحتمل أن يرى قميص ابنه المحبوب يوسف مغموســاً في الدم. أما المطوّبة مريم فقد رأت مَنْ هو أعظم من يوسف وقد اقتسم العســكر كل ثيابه، وجسده كله ينزف الدم، ويموت أمام عينيها كما يموت السفهاء!

يا لعظمة التعبير «واقفات»! يا للبطولة والشجاعة والثبات، بالإضافة إلــى الحب والوفاء الذي نستشفه من قول الوحي «كانت واقفات عند صليب يسوع»!

هذا ما كان من مريم أمه وباقي النساء الواقفات معـــها فـــي ذلـــك اليـــوم العصيب، فماذا بالنسبة لك أيها القارئ الحبيب؟ إن الصليب في نظر اليـــهودي عثرة، وفي نظر اليوناني جهالة، فما هو في نظرك أنت؟ أتـــراكَ تتفـــر مـــن الصليب الذي كان وسيلة فدائك؟ أتخجل من المصلوب الـــذي أحبـــك ومـــات لأجلك؟ عارٌ عليك، إذا فعلت، عظيم!

لقد كانت واقفات عند صليب يسوع في ذلك اليوم أمه وباقي النســـاء، أفـــلا تقف أنت اليوم؟ هلا أسمعك تُنشِد مع المرنم بشموخ:

قِفْ بجـــوارِ الصليـــبْ أيُـــها الجنـــدي الجبـــارْ
ســـنغلبُ عَـــنْ قريـــبْ ونرجـــعُ بالإنتصـــــارْ

لما رأى يسوعُ أمَه

لقد أشرنا في ما سبق إلى آلام المطوَّبة مريم، أما هو، حبيبنا يسوع، وأمـــا آلامه فمَن فينا يقدر أن يدركها؟ لقد تحدثنا عمَّا عملته المطوّبة مريـــم لأجلـــه: لقد عملت كل ما كانت تستطيع أن تعمله. أما هو، ذلك المصلوب، وأمـــا مـــا عمله هو لأجلها بل ولأجل كل البشر، فلقد كان يعمل ما يستطيع هو وحـــده أن يعمل، وما لم يكن أحد سواه يســـتطيع أن يعملـــه. إن عملـــها كـــان منتـــهى الإخلاص، وأما هو فقد قام بصنع الخلاص.

يقيناً كانت آلام النساء في ذلك اليوم، ولا سيما آلام أمه، عظيمة، أمـــا آلامـــه هو فكانت بكل يقين أشد بما لا يُقاس. كانت آلامهن، وهن واقفات عند الصليـــب، شديدة، أما آلام المصلوب نفسه فما كان أشدّها! لقد كانت كافية لتجعلـــه ينســـى، في سعيرها، كل شخص وكل شيء حوله. إن شدة آلام النســـاء أعجزتـــهن عـــن

الكلام، فلم تستطع واحدة منهن أن تنطق ببنت شفة، أما هو ففي آلامه الأشد نطق وتكلم. فتعالوا بنا نستمع إلى أقواله العجيبة في هذا المشهد المذيب.

لقد كان المسيح كمال الكمال في كل شيء، وقبل مولده بمئات السنين قال عنه إشعياء النبي «ويُدعى اسمه عجيباً» (إش٩:٦). أكان يمكن أن ذلك الكامل العجيب لا يهتم بأمه*؟! لقد ذكر قاتليه فهل ينسى أمه؟! أكان يمكن أن ينسى تلك الأم الحزينة الواقفة عند الصليب؟!

قال واحد: "في حياة ربنا يسوع المسيح من أولها إلى آخرها نجد مزيجاً عجيباً من العظمة والاتضاع، فإذا لمع شعاع من أمجاد لاهوته مضيئاً مُبرقاً لا نلبث أن نراه إنساناً مثلنا من لحم ودم". وهو عينه ما نراه هنا عند الصليب.

إن شدة آلام النساء أعجزتهن عن الكلام فلم تستطع واحدة منهن أن تنطق ببنت شفة، أما هو ففي آلامه الأشد نطق وتكلم بأقوال عجيبة في هذا المشهد المذيب.

عندما صلَّى المسيح وهو فوق الصليب لأجل أعدائه، كان هذا من صميم رسالته، كقول الوحي «وهو حمل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين» (إش٥٣:١٢). وإن كان قد اهتم بلصٍ تائبٍ وثق به، فهذا أيضاً يتفق ورسالته باعتباره المخلِّص كقوله هو «لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلِّص ما قد هلك» (لو١٩:١٠). لكن أن يهتم في ساعةٍ كهذه بأمر عائلي، ويكرِّس بعض وقته لشأن من شئون الحياة العادية فهذا هو الكمال الإنساني بعينه.

---

* يمكننا أن نستنتج من العديد من فصول العهد الجديد أن يوسف رجل مريم كان قد مات منذ فترة (انظر على سبيل المثال مت١٣:٥٥)، وبالتالي فإن المطوّبة مريم كانت في ذلك الوقت أرملة، وكانت مسؤولية العناية بها تقع أساساً على الرب يسوع الذي يُسمّى بأنه «ابنها البكر» (مت١:٢٥؛ لو٢:٧).

لاحَظ أحدهم أن الرب يسوع من فوق جبل الموعظة وهو يُلقـــى موعظـــة الجبل الواردة في متى ٥-٧ أضفى أبعاداً عظيمة ومجيدة علـــى كـــل وصايـــا الناموس تقريباً، باستثناء الوصية الخامسة التي تقول «أكرِمْ أباك وأمك». لكـــن ما لم يقله الرب من فوق الجبل قاله من فوق الصليب، لا بوصفه معلِّماً قديـــراً، بل مثالاً لا نرى له نظيراً. إن سيدنا هنا بمثاله الرائـــع يضفـــي علـــى تلـــك الوصية ما لم يكن ممكناً أن تفعله أقوى العظات، ولو استغرقت ساعات.

«فلما رأى يسوع أمه، والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً، قال لأمه: يـــا امـــرأة هوذا ابنك، ثم قال للتلميذ هوذا أمك».

كـــان الرجـــاءُ بِـــكَ بُنَـــيَّ وها الرجـــاءُ بِـــكَ انطفـــا
خوفـــي، فليـــسَ الآنَ لـــيْ ســـندٌ ولا ابـــن أعرِفَـــهْ
فـــإذا بصوتِـــهِ فائضـــاً بـــالحبِّ يعلـــو هاتفـــا
يـــا امـــرأةُ هـــوّذا ابنُـــكِ كيـــفَ أقُوتُـــكِ خائفـــةْ
عجبي على المصلوبِ مـــا أنْسَـــتهُ كربتُـــه الوفـــا
ربَّاه مـــا أحلـــى حَشَـــاكْ ومـــا أرقَّ وألطـــفَ

إن الرب لم ينسَ أن المطوّبة مريم امرأة وأنها أم. وأية أم ممكن أن تتحمـــل موت ابنها أمامها، ولا سيما إذا كان «كالتفاح بين شجر الوعر كذلك (هـــو) بيـــن البنين»؟! لهذا يقول الوحي «ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته».

والآن دعني أقول لك أيها القارئ العزيز: إن القلب الذي أشفق وهو علـــى الصليب، ما زال يُشفق على كل متألم ويرثي لكل مُجرَّب. إنه يحيط باهتمامـــه وعنايته كل خاصته الذين في العالم والذين أحبهم إلـــى المنتـــهى (يـــو١٣: ١).

وهو إن كان قد اهتم بأمه، فلا ننسَ أنه قال مرة «إن مَنْ يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي» (مت١٢:٥٠). فليتعزَّ المحزونون وليتشجع المحتاجون لمن يهتم ويرثي (١بط٥:٧؛ عب٤:١٥،١٦)، وليتعلّم المتوحدون حقاً أن يلقوا كل رجائهم عليه هو، ذاك الذي له قال المرنم:

قلبُكَ ينبضْ حناناً حتى منْ فوقِ الصليبِ
يدُكَ تجرحْ وتعصبْ أنتَ إلهي الحبيبِ

يا امرأة، هوذا ابنك

«فلما رأي يسوع أمه، والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً، قال لأمه: يا امرأة، هوذا ابنك». يتساءل البعض: لماذا خاطب المسيح المطوَّبة مريم بالقول «يا امرأة» ولم يقل لها "يا أماه"؟

وبداية يؤكد العارفون باللغة وباستخداماتها أنه ليس في كلمة امرأة في الأصل اليوناني ما يفيد أي عدم احترام، بل إنها تعنى حرفياً «يا سيدة». لكن يظل السؤال: لماذا لم يقل لها: "يا أماه"؟!

هذا السؤال الطبيعي شد المفسرين كي ما يُدلي كل واحد منهم بدلوه ويقول رأيه.

قال بعضهم: إن كلمة "يا أماه" في ذلك الوقت العصيب كانت ستزيد جرح قلب المطوَّبة مريم، فتحاشى الرب أن ينطق بها واستخدم بدلها كلمة «يا امرأة»، أو يا سيدة.

وقال آخرون: إن المسيح وهو على الصليب كان مصلوباً باعتباره نسل المرأة المُتنبأ عنه في الجنة بأنه «يسحق رأس الحية» (تك٣:١٥). لهذا خاطب

أمه بالقول: «يا امرأة»، ليؤكد على أنه هو «نسل المرأة».

وقال فريق ثالث: إن بين ما ورد في أول إنجيل يوحنا وما ورد في آخره علاقة. ففي يوحنا ٢ قال الرب لأمه في عُرس قانا الجليل: «ما لي ولك يا امرأة؟ لم تأتِ ساعتي بعد». وهنا في آخر الإنجيل قال لها «يا امرأة، هوذا ابنك». كلا التعبيرين ورد في إنجيل يوحنا الذي يحدثنا عن لاهوت المسيح باعتباره الكلمة الأزلي، ابن الله الوحيد.

من الرب نتعلم أنه لا ينبغي أن نجعل العلاقات العائلية تتداخل في خدماتنا الروحية مهما صغرت، كما أنه لا يجوز أن نجعل مهامنا الروحية، مهما عظمت، تنسينا الاهتمام الواجب علينا بالأمور العائلية.

لكن في هذين التعبيرين، اللذين ورد أحدهما في بداية خدمة الرب والآخر في نهاية خدمته، نرى الكمال العجيب (وهو ما ميَّز المسيح دائماً) في كيفية التوفيق بين المهام الروحية والأمور العائلية، أو بالأحرى العلاقة بالله وأموره، والعلاقة بالأهل وشؤونهم. ففي عُرس قانا الجليل، عندما أرادت المطوَّبة مريم أن توجِّه الرب في خدمته، لم يسمح لها، وقال لها بكل وضوح: «ما لي ولك يا امرأة؟». فمؤدّى قوله: "صحيح أنَّ المسألة التي طلبتِ مني التدخل فيها هي أمر عادي «ليس لهم خمر»، لكن ما دامت تمسّ خدمتي التي بها أخدم الآب وحده، فما لي ولكِ؟" أما الآن وهو على الصليب، وهو يقوم بأعظم عمل في التاريخ، بل أعظم من خَلق السماء والأرض، فإنه لا ينسى أن ينشغل بأمه، ويرتب أمورها قبل رحيله فيقول لها «يا امرأة، هوذا ابنك».

من هذا نتعلم أنه لا ينبغي أن نجعل العلاقات العائلية تتداخل في خدماتنا الروحية مهما صغرت، كما أنه لا يجوز أن نجعل مهامنا الروحية، مهما عظمت، تنسينا الاهتمام الواجب علينا بالأمور العائلية.

وقال فريق رابع في تعليل استخدام الرب للتعبير «يا امرأة»: إن المسيح لمَّا أتى إلى الأرض، أخذ – له المجد – علاقات طبيعية كالتي لنا نحن تماماً. لكن الموت والصليب وضعا نهاية لهذه العلاقات الطبيعية، كقول الرسول «نحن من الآن لا نعرف أحداً حسب الجسد، وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد. إذاً إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة: الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كو٥:١٦،١٧). وكما أنهى الصليب العلاقات الطبيعية الجسدية، فإن القيامة وحلول الروح القدس يوم الخمسين أسَّسا لنا مع المسيح علاقة جديدة لن تنفصم أبداً. بالقيامة ارتبطنا بالمسيح بصورة أمجد، فصرنا روحاً واحداً، وصرنا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.

وبالنسبة للمطوَّبة مريم، فمع أننا نرجِّح أن المسيح ظهر لها، كما ظهر للتلاميذ، بعد القيامة «الذين أراهم نفسه حياً ببراهين كثيرة، بعد ما تألم، وهو يظهر لهم أربعين يوماً» (أع١:٣)، فإنه التقاها على أرضية جديدة. وكأن الرب هنا في كلمات استيداعه أمه لعناية يوحنا كان يُهيِّئها للنقلة من علاقتها الطبيعية بيسوع، إلى علاقتها الروحية بالمسيح!

ولنا نحن في هذا درس وسند. فكم نحسّ بالخسارة عندما يرقد بعض ممن كانت لنا بهم ارتباطات عائلية خاصة وقوية. ونحن نعلم أن هذه العلاقة لن تكون في السماء كما كانت على الأرض، ولا يمكن أن تكون، لكن كاهننا العظيم، ربنا يسوع، اختبر أيضاً، من فوق الصليب، هذا النوع من الحزن والألم، ولهذا فهو يقدر أن يرثي لنا في هذا أيضاً، كما في كل شيء آخَر.

تكليف وتشريف

يقول الوحي عن المسيح: «ثم قال للتلميذ: هوذا أمك. ومن تلك الساعة

أخذها التلميذ إلى خاصته». ومع تقديرنا كل التقدير للمطوّبة مريم، لكن يؤسفنا أن البشر أضفَوا عليها ما لا نجد له أدنى سند في كلمة الله، فهي ليست كما يزعم البعض "حامية الكنيسة، ومُعينة البشرية". فالوحي هنا يخبرنا أنه «من تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته». ومن هذا نفهم أنها كانت محتاجة إلى رعاية رجل يتولى الاهتمام بشؤونها، فيوحنا هو الذي أخذ المطوّبة مريم لعنايته، وليست هي التي أخذت يوحنا لعنايتها. وهي إن كانت تحتاج لعناية غيرها من جهة الزمان، فكيف تُعين غيرها من جهة الأبدية؟!

ثم قال للتلميذ: «هوذا أمك». وهذه بكل يقين دلالة ثقة كبيرة، أن يستودع المسيح أمه ليوحنا ليعتني بها. ونحن لا نتعب كثيراً لنعرف لماذا اختص الرب يوحنا بهذا الأمر دون الباقين، إذ يقول الوحي هنا عنه إنه التلميذ الذي كان يسوع يحبه. فالمحبة تؤتَمَن على أعظم الودائع، وتُكلَّف بأعظم الأعمال. والمحبة من الجانب الآخر تُسرّ أن تَخدِم. ومَنْ فينا يشك لحظةً أن يوحنا، عندما قبل هذه المأمورية، اعتبر الأمر تشريفاً من الرب لا تكليفاً؟

ولنا في هذا أيضاً درس. فهل عَهِد الرب إليك الاعتناء ببعض من أقربائك؛ أرامل كانوا أم أيتاماً؟ لا تعتبر ذلك عبئاً ثقيلاً بل اعتبره شرفاً نبيلاً. صحيح أن هؤلاء لن يكونوا على مستوى تقديرنا للمطوَّبة مريم، لكن اسمع ما سيقوله الملك للذين عن يمينه من الذين اعتنوا وأطعموا وزاروا المضطهدين الأذلاء في فترة الضيقة العظيمة: «بما أنكم فعلتموه بأحد اخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (مت٢٥:٣٥-٤٠).

يعتقد بعضهم أن يوحنا كان قريباً للمسيح حسب الجسد. لكن ليس لهذا السبب استودعه الرب أمه ليعتني بها. فهناك آخرون - على أي حال - كانوا

أكثر قرباً للرب من يوحنا، هم الذين يقول عنهم الوحي «اخوة الرب*». كـــلا، ليس لمجرد القرابة الجسدية، بل لأنه كان أقرب التلاميذ إلى قلب السيد. فـــهو الذي كان يتخذ مكانه في حضن يسوع، ويتكئ على صدره. نعـــم، إن المحبـــة هي التي يُشرفها الرب بأعظم الأعمال وأمجدها!

وقد يقول قائل: لكن ألم يشكّ يوحنا في المسيح كباقي التلاميذ الذين قـــال لهم الرب «كلكم تشكّون فيّ في هذه الليلـــة» (مت٢٦: ٣١)؟ أولم يهرب مع باقي التلاميـذ لحظة القبض على سيدنا كقول الوحي «حينئـذٍ تركه التلاميذ كلهم وهربوا» (مـــت٢٦: ٥٦)؟ نعم، هذا صحيح. لكن يوحنـــا الـذي جبـن وهرب، عاد من جديـــد ليقـف إلـــى جـوار المريمات الحزينات عنـــد جـذع الصليـب.

المحبة تؤتَمَن على أعظم الودائع، وتكلَّف بأعظم الأعمال. والمحبة من الجانب الآخر تُسرّ أن تَخدِم.

والرب لم يوبّخه على ضعفه، ولم يعاتبه على جبنه، بل بلطفه الغـــامر، وحبـــه الغافر، كلّفه هذا التكليف العظيم، بل شرّفه بهذا الشرف الكبير.

هل قصّر أحدنا أو ضَعُف؟ هل جَبُن واحد منا أو فشل؟ إننا إن عدنا إليـــه الآن فسنرى أنه ما زال يحبنا كالأول. بل ربما ينتظرنا عمل وخدمـــة أعظـم مما عملناه في كل ما سبق من حياتنا. إنه إله كل نعمة الذي أظهر النعمة تجـاه صالبيه، أفلا يظهرها بالأولى جداً نحو تلاميذه؟ فمهما كان ضعفك أو فشـــلك، فعُدْ إليه، إنه صفوح غافر!

---

* يعتقد بعضهم أن سر استيداع الرب أمه ليوحنا، وليس لإخوته حسب الجسد هو أنهم حتى ذلك الوقت لـــم يكونـوا يؤمنون به (يو٧: ٥). ولقد كان هذا مذيباً لقلوبهم، قادهم إلى الإيمان به. ولهذا فقد ظهر الرب بعد قيامته مـــن الأموات ليعقوب أخي الرب (١كو١٥: ٧)، فصار واحداً من الرسل (غل١: ١٩).

العبارة الثالثة من فوق الصليب

كلمات التعزية

وكان واحد من الذنبين المعلقين يجدِّف عليه قائلاً: إن كنت أنت المسيح، فخلِّص نفسك وإيّانا! فأجاب الآخر وانتهره قائلاً: أولا أنت تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟ أما نحن فبعدل، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس في محله. ثم قال ليسوع: اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك. فقال له يسوع:

الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ،

إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ

(لو ٢٣:٣٩-٤٣)

هذه الأقوال العجيبة التي انفرد بذكرها لوقا البشير، والتـــي تحدثنـــا عـــن خلاص اللص التائب، تستحق أن تُكتب بماء الذهب، لأن أعداداً لا تُحصَى مـــن المفديين مدينون لها بسعادتهم الأبدية. فهي تصوِّر لنا بصورة منقطعة النظـــير قوة المسيح في الخلاص، واستعداده المطلق في قبول كـــل مـــن يقبـــل إليـــه. ونلاحظ أن إنجيل لوقا في بدايته ينفرد أيضاً بذكر أول موعظة للمســـيح، قالـــها في مجمع الناصرة، فتعجبت الجموع من كلمات النعمة الخارجة من فمه (لـــو ٤: ١٦-٢٢). وما زال - تبارك اسمه - حتى آخر لحظة له علـــى الأرض هـــو هو، الممتلئ بالنعمة. وهنا في هذه الكلمة الثالثة ما زلنا نندهش مـــن كلمـــات النعمة التي ردّ بها على ذلك اللص، وترحيب النعمة في قبول شخص كهذا.

يسوع وسط المذنبين!

ونريد في البداية أن نتأمل في الموضع الذي صُلِب فيه المسيح. يذكر لنـــا مرقس البشير «صلبوا معه لصين، واحداً عن يمينه وآخَر عـــن يســـاره، فتـــم الكتاب القائل: "وأُحصِيَ مع أثمـــة"». والأرجـــح أن البشـــر الأشـــرار أرادوا الإمعان في تحقير المسيح فصلبوه بين لصين عن يمينه وعن يساره، فاللصـــان،

نظراً لتشابه جريمتهما، بل وربما لاشتراكهما في الجريمة ذاتها، كان المفروض أن يُصلَبا بعضهما بجوار بعض، وأن يُصلَب المسيح في مكان منفصل، فتهمته التي لفقوها ضده هي تهمة مختلفة تماماً، لا علاقة لها بالسرقة من قريب ولا من بعيد، إلا أن الناس الأشرار قصدوا التشهير بالمسيح، فصلبوه وسط اثنين من اللصوص. لكن أكان هذا مجرد صدفة؟ أكان هو مجرد تصرف أخرق من جانب البشر الحاقدين؟ وإذا كنا نؤمن أن وراء كل كبيرة وصغيرة من أمورنا إله عظيم دقيق، فهل يمكن أن يكون صلب المسيح في هذا المكان هو مجرد صدفة؟ كلا، فالأمر أعظم من ذلك بكثير!

فأولاً: كان صلب المسيح في ذلك المكان إتماماً للنبوة التي قالها إشعياء عن المسيح قبل صلبة بنحو سبع مائة عام «وأُحصِيَ مع أثمة» (إش٥٣:١٢). هذا ما أكَّده مرقس في إنجيله (مر١٥:٢٨).

ثانياً: هناك هدف آخر، وهو أن يكون المسيح قريباً من الذين أتى ليخلّصهم، ومضى إلى الصليب ليموت نيابة عنهم. ولقد كان صلب المسيح بين المذنبين بركة لأحدهما، إذ خلُصَ واحد منهما بالفعل في آخر لحظة. ويا لها من صورة معبِّرة ترسمها لنا ريشة الطبيب الحبيب لوقا، فإنَّ خاطئاً تائباً لن يكون بعيداً البتة عن المخلص المنعم!

تبارك اسمك يا ربنا: في ولادتك أحاطت بك البهائم، ثم في موتك نراك وقد أحاط بك الذين لفظتهم البشرية. فأنت المخلص الذي لا نظير لتواضعك. أظهرت تواضعك العظيم في وَلادتك، وخلاصك العظيم في موتك.

يخبرنا البشيران متى ومرقس أن اللصين في البداية اشتركا معاً في تعيير المسيح (مت٢٧: ٤٤؛ مر١٥: ٣٢). لكن بعد ذلك حدث اختلاف بين اللصين

فأحدهما واصل تعييره للمسيح، والآخَر لمس روح الله قلبه وتبدل مسيره وتغــيَّر مصيره. وبعد ساعات فصلت أحدهما عن الآخر هوة عظيمة أُثبِتت، لا لســبب إلا لأن أحدهما آمن بالمخلِّص فخلُصَ، والآخر رفض فرُفِض.

وهذه الحادثة تحكي لنا قصة الفداء موجزة مركزة. فها المخلّــص الفــادي على الصليب، وبجواره إنسان خاطئ تاب وآمن فخلُص، وفي المقــابل خــاطئ آخر احتقر ورفض فهلك. كلاهما كان له الماضي الأثيم نفسه، وينطبق عليــهما قول الكتـــاب «لأنـــه لا فـــرق، إذ الجميـــع أخطـــأوا وأعوزهـــم مجـــد الله» (رو٣:٢٢،٢٣). لكن ليس ذلك فقط، بل كان كلاهما على بُعـــدٍ متســاوٍ مـــن المخلص، وكانا تحت الظروف عينها، وكلاهما شاهد مشهد الصليب المؤثِّر فـــي الوقت عينه، لكن واحداً تأثر وتغير وتبرر، وبقى الآخر كما كـــان. هـــل هـــذا عجيب؟ ألا نقرأ عن أول أخوين: أن هابيل تبرر وخلص، وأما قـــايين فـــهلك؟ وهنا واحد من اللصين خلص، والآخر هلك*.

إذاً لقد قسم المسيح وهو على الصليب الأوسط العالم إلى فريقين. وهكـــذا هي الحال دائماً: فقد وُضِعَ المسيح لسقوط وقيام كثيرين (لـــو٢:٣٤)، والبشـــارة بالصليب هي للهالكين جهالة وأمـــا عندنـــا نحـــن المخلَّصيـــن فـــهي قـــوة الله (١كو١:١٨)، وأخبار الإنجيل هي لأُناسٍ رائحة حياة لحياة وللآخريـــن رائحـــة موت لموت (٢كو٢:١٦). ولا نجد تفسيراً لكل هذا سوى مطلق سلطان الله.

لقد اشترك اللصان في البداية – كما ذكرنا – في تعيير المسيح، مقلّدين فـــي ذلك رؤساء الكهنة والكتبة. وما أتعس الحالة التي تردّى فيها هـــذان اللصـــان

---

* إن كانت كلمات الترفق السابقة التي قالها لكلٍّ من المطوبة مريم وتلميذه يوحنا قد ربطتـــهما معـــاً، كما يحب المسيح أن يفعل أيضاً مع قديسيه جميعاً (يو١١:٥٢)، فإن كلمات التعزية التـــي قالـــها هنا للّص التائب، قد فصلته أدبياً وأبدياً عن زميله الذي كان رفيقه طول العمر!

وهما على شفا الأبدية، وما أتعسهما وهما يهدران بكلمات التعيير ضـــد المتـــألم القدوس وهو يقاسي آلامهما وعارهما بالذات. وقد يبدو غريباً أنَّ اللصين كانـــا يعيران المسيح، فربما لم يرياه من قبل، وهو بالتأكيد لم يعمل لـــهما أي شـــيء يسيء إليهما، فلماذا يكرهانه؟ ولماذا أبغضه باقي البشر؟ بـــل لمـــاذا تتكـــرر الصورة نفسها في هذه الأيام فيمن يكرهون المسيح وأتباعه؟ لماذا؟ الواقـــع أن ليس لكل ذلك سبب إلا ما قاله المسيح «أبغضوني بلا سبب» (يو١٥:٢٥).

صورة لي ولك

لكن دعنا نتحول إلى أنفسنا. فهذان اللصان هما صورة لنا كلنا، إذ يقـــول الوحي «وأنتم الذين كنتم قبلاً أجنبيين وأعداء في الفكر، في الأعمال الشـــريرة، قد صالحكم الآن في جسم بشريته بالموت» (كو١: ٢١،٢٢)، وأيضاً «لأنـــه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه» (رو٥: ١٠).

هل أسمع واحداً يعترض على هذا التشبيه ويقول: "أنا لست لصـــاً، ولذلـــك فهذا اللص لا يشبهني ولا أنا أشبهه"؟ صديقي، أقول لك بـــإخلاص إن حـــالتك أسوأ بكثير مما تظن، والإنسان الطبيعي وهو في حالته الطبيعية هو لـــص مـــن أسوإ أنواع اللصوص إذ أنه لا يسرق الناس بـــل الله (انظـــر مـــلا٣:٨). أولا يقرِّر الكتاب المقدس أن الإنسان قصَّر في تمجيد الله وأنـــه تعـــدى اعتبـــارات مجده؟ ذكر أحدهم هذا المثل: هَبْ أن إنساناً كان يعمـــل فـــي شـــركة معينـــة باعتباره ممثلاً لها في بلد معيَّن، وكانت الشركة ترسل له راتباً شـــهرياً مجزيـــاً إزاء خدمته لها، وكان هو يصرف هذا الراتب فيما يعمل طول الوقت لمصلحـــة شركة منافسة. أخبرني، ألا يُعتبر هذا الوكيل لصَّـــاً؟ والآن ألا تـــرى معـــي

المشابهة بين هذا الوكيل والإنسان عموماً؟ لقد أعطانا الله الصحة والقوة «لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد» (أع١٧:٢٨)، لكننا بدل من أن نمجد الله قمنا بخدمة عدوه: خدمنا الشيطان، وخدمنا الشهوات والخطايا، وعملنا كل ما يغضب الله بالفكر والقول والعمل. فكيف نستكثر على أنفسنا تهمة السرقة؟

إذاً فهذا اللص الذي نتأمل قصته يمثِّل العداء نحو الله وتعدي حقه. لكن هناك شيئاً آخر يمثله ذلك اللص: إنه يمثِّل العجز الكلي. نعم، ماذا كان بوسع لص قاتل، مُسمَّر اليدين والقدمين، أن يعمل ليخلِّص نفسه أو يرضي خالقه؟ لقد كان على شفا الموت، وما تبقَّى له من العمر يجعله من العسير جداً عليه أن يعمل أي شيء، ووضعه الذي كان فيه يجعل من المستحيل عليه تماماً أن يفعل أي شيء. لكن خلاص الله لا يحتاج إلى وقت ولا إلى عمل. فيا لنعمة الله التي بغير حدود والتي تخلِّص شخصاً فاجراً عاجزاً كهذا اللص المصلوب! ويا لخلاص المسيح المُقدَّم لجميع البشر، ولأردإ البشر، كقوله الكريم «مَنْ يُقْبِل إليَّ لا أخرجه خارجاً» (يو ٦:٣٧).

تأمل معي في نعمة الله مع هذا اللص: إنه في الصباح كان مجرماً في السجن محكوماً عليه بالصلب، وقبل الظهر صار مخلَّصاً بالنعمة، وقبل الغروب غدا في الفردوس.

تأمل معي – عزيزي القارئ – في نعمة الله مع هذا اللص: إنه في الصباح كان مجرماً في السجن محكوماً عليه بالصلب، وقبل الظهر صار مخلَّصاً بالنعمة، وقبل الغروب غدا في الفردوس. من كان يتخيل هذا ممن كانوا ينظرون إلى ذلك اللص على الصليب في صباح ذلك اليوم: أنه بعد ساعات معدودة سيكون في الفردوس مع رب المجد؟!

خلاص في أسوإ الظروف

لكنى أريد الآن – بنعمة الرب – أن أركِّز النظر على الظروف التـــي فيـــها خلص ذلك اللص. فهذا اللص التائب الذي خلّصته نعمة الله هو نجم ســـاطع فـــي حلكة ليل الشر، يرشد الذين يبتغون ضياء الراحة وسط بحر العواصف وأمواجـــه المتلاطمة. ما أروع تلك القصة التي تصوِّر لنـــا نعمـــة الله الكاملـــة وخلاصـــه الأبدي المجاني لنفس الأثيم الجاني! وما أعجب أن يحدث ميلاد لنفس إنسان فـــي مثل هذا المهد: الصليب! لكن حقاً «غير المستطاع عند النـــاس مُســـتطاع عنـــد الله» (لو١٨: ٢٧). إن هذا اللص التائب التقى الرب في أسوإ وقت وأســـوإ مكـــان – بحسب النظرة البشرية – بالنسبة لكليهما، ومع ذلك فقد خلص.

فبالنسبة للمسيح، وصل إلى أدنى صور الاتضاع إذ كان «لا صورة لـــه ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه، محتَقَر ومخذول من النـــاس» (إش٥٣: ٢،٣). كان يبدو كأنه لا يقوى على أن يُخلِّص نفسه، فكيف يُخلِّص غـــيره؟ كـــان فـــي مشهد رفض واحتقار من جموع الأمة وقادتها، فكيف لمجرم خارج عـــن القـــانون أن يؤمن به؟ كان لأعدائه اليد الطُّولى، فيما المؤمنون به تخاذل إيمانـــهم وفـــرّوا جميعاً، فكيف يؤمن به شخص لم يكن قد سبق له الإيمان؟ كـــان مُســـمَّر اليديـــن متروكاً من أحبائه، فكيف لمن لم تسبق له معرفة به أن يعترف به؟ كان مـــنزوع الثياب، مُحصَّى مع أثمة، فكيف يكون هو الملك وكيف يكون هو الرب؟ لكن، يـــا للعجب! إننا هنا نقتبس كلمات كلفن عندما قال: "لقد رأى ذلك اللص فـــي مشـــهد الموت حياة، وفي الأطلال جلالاً، وفي الخزي مجداً، وفي الهزيمة نصرة، وفـــي الرُبط سلطاناً، وفي الصليب عرشاً، وفـــي إكليـــل الشـــوك تاجـــاً". وإن المـــرء ليتساءل: "تُرَى هل ارتقى إيمان منذ بدء الخليقة مثل إيمان هذا اللص التـــائب؟!" لقد خذلتْ المسيحَ أُمَتُه، وقد خانه تلميذه، وهرب الباقون جميعاً، وهـــا هـــو يُقطَـــع

وليس له شيء على الإطلاق (دا٩:٢٦). لكن كان هناك شخص آمـــن بـــه ورأى مجده، بل اعترف به جهراً. وبينما المســيح مُعلَّــق علــى الصليــب قــال لـــه: «اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك»! لقد وجد المسيح في ذلك اللـــص، فـــي تلك الساعات العصيبة، باكورة ناضجة شهية من تعب نفسه. أليس لأجل أمثـــال هذا اللص احتمل المسيحُ الصليبَ مُستهيناً بالخزي؟

نعم، نحن لا نقدر سوى أن نقول إن خلاص هذا اللص في هذه الظروف هـــو معجزة من معجزات النعمة. إنه شعلة منتشلة من النار. لكننا نســـتدرك ســـريعاً فنقول: بل إن كل إيمان بالمسيح في أي زمان وأي مكان هو معجـــزة، فالإنســـان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأن ذلك بالنسبة له جهالة. أفليس عجيبـــاً أن لصّـــاً مرائياً عاش مع المسيح ثلاث سنين ونصف خنق نفسه في ذلك اليوم وذهب إلـــى مكانه، لكن لصّاً آخر رتبت النعمة أن يلتقي الـــربَّ فـــي آخِـــر لحظـــات عمـــره فخلّصه المسيح، ومضى في ذلك اليوم نفسه ليكون معه في الفردوس؟!

إنك إذا رأيت شخصاً معادياً لله يعيش لِذاته ولَذّاته فهو شخص طبيعي، وهـــو الذي عمل نفسه هكذا. أما إذا رأيت مؤمناً حقيقياً بالمسيح، يملأ خوف الله قلبـــه، فهذا بكل يقين ثمرة النعمة المُخلِّصة، كقول الكتـــاب: «وأمـــا كـــل الذيـــن قبلـــوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه. الذين وُلِـــدوا ليـــس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله» (يو١:١٢،١٣).

لكن ليس فقط من جانب المسيح، بل أيضاً من جانب اللص كانت الظـــروف أسوأ ما تكون. فقد كان اللص في آلام رهيبة، هي آلام الصليـــب، فـــهل هـــذا وقت مناسب للإيمان؟ على أن هذا – ويا للعجب – هو مـــا كـــان! لذلـــك إن وصلت هذه الكلمات إلى شخص على سرير المرض أو حتى فـــراش المـــوت، فإنّ الذي خلّص اللص وسط آلامه الرهيبة قادر أن يُخلِّصك أنت أيضاً.

خلص وهو على حافة الموت!

نحن لا نعرف على وجه التحديد ما الذي أثَّر في هذا اللص وأحـــدث فيـــه هذا التغيير العجيب؟ أ لأن المسيح في أثناء عملية الصلب الأليمة لـــم يُبـــدِ أيّ احتجاج ولم يصدر عنه صراخ صياح أو استنكار؟ أم أن صلاة المسيح لأجـــل قاتليه طالباً الغفران لصالبيه قد أثّرت فيه؟ نعم، نحن لا نعـــرف علـــى وجـــه التحديد هل كان ذلك أو غيره، فالرب عندمـــا أراد أن يشـــرح كيفيـــة حـــدوث التغيير في قلب الإنسان قال «الريح تهُب حيث تشاء، وتسمع صوتها، لكنـــك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل مَنْ وُلِدَ من الروح» (يو٣:٨).

نعم، إن عمل الله هو وحده الذي ظهر هنا، فلا عمل من جانب البشـــر ظـــهر في خلاص ذلك اللص. لقد قال يونان، وهو في بطن الحوت: «للرب الخـــلاص» (يون٢:٩). نعم، فمَنْ كان بوسعه أن يُخلِّص يونان مـــن بطـــن الحـــوت ســـوى الرب؟ ومَنْ بوسعه أن يخلِّص أي خاطئ من خطاياه سوى الرب؟ لذا فقد قصـــد الله أن يخلص هذا اللص التائب في أسوإ الظروف من الناحية الإنسانية، حتـــى لا يفتكر واحد أنّ للإنسان دخلاً في خلاص أي إنســـان. دعنـــا إذاً لا نركِّـــز علـــى الوسائل المستخدمة في التبشير، فلقد استحسن الله أن يخلِّـــص المؤمنيـــن بجهالـــة (أي ببساطة) الكرازة. إن الخلاص ليس هو عمل الإنسان الذي يمكنك أن تفهمـــه وتتبعه، بل هو عمل روح اللّه الذي يفوق العقل والتصور.

إن هذه الحادثة العجيبة التي نتأملها الآن تفتح أمامنـــا الفرصـــة لأن نقُـــدِّم بشارة الإنجيل لأي شخص، ولو كان على حافة الموت. وكـــم نشـــكر الله لأن إنجيل الله، هذا الإنجيل الذي تأسس على موت المسيح لأجلنا، قـــدَّم الخـــلاص المجاني للص التائب، وهو على حافة الأبدية؛ وهو قَبِلَـــه فعـــلاً. لا تســـتكثر

خطاياك إذاً على نعمة الله أيها القارئ العزيز. ومهما كانت تلك الخطايا، مهما ارتفعت جبالاً فوق التصور والخيال فإنه «حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جدا» (رو٥: ٢٠)، «ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية» (١يو١: ٧).

إن ذلك اللص لم يكن له أي رصيد من الأعمال الصالحة قبل توبته، ولا بعدها. فهو مجرمٌ عاتٍ، لا خاطئ عاديّ. لقد كسر القوانين البشرية، وروّع الناس بأعماله الإجرامية، وسفك الدماء الزكية، فاستحق عدلاً تلك الميتة البشعة. لقد كان الحكم بالصلب حكماً عادلاً باعترافه هو. نعم، لم يكن لهذا اللص غير التوبة والإيمان، لا أكثر ولا أقل. إنّ كلمات المسيح العجيبة التي قالها في حياته «مَنْ يُقبِل إليَّ لا أخرجه خارجاً» (يو٦: ٣٧)، هذه الكلمات قد وُضِعَت هنا تحت الامتحان في هذه الحادثة، فتبيَّن أنها ذهب خالص، وفضة ممحوصة سبع مرات (مز١٢: ٦).

والآن هل أسمع واحداً يقول: "لقد عشت عمري كله في الخطايا والآثام، فكيف يقبلني المسيح وأنا في هذه الحالة ؟" عزيزي، إنّ هذه الحادثة العجيبة تفتح أمامك باب الرجاء. اركن تماماً إلى وعد المسيح «مَنْ يُقبِل إليَّ لا أخرجه خارجاً». حتى لو كنتَ قد عشتَ حتى هذه اللحظة حياة خالية من أي صور التقوى ومظاهرها، فإنك إن آمنت الآن أن يسوع هو ابن الله الذي أتى إلى العالم ليخلص الخطاة، ليخلِّصَك أنت، وإن اعترفت بخطاياك له، ووضعت كل ثقتك فيه، فإنه سيُخلِّصك فوراً.

هذه الحادثة العجيبة تدعونا لأن نقدِّم بشارة الإنجيل لأي شخص، ولو كان على حافة الموت. فإن إنجيل الله، هذا الذي تأسّس على موت المسيح لأجلنا، قدَّم الخلاص المجاني للص الجاني، وهو على حافة الأبدية، وهو قبله.

نحن نؤمن أنْ في لحظة واحدة يمكن أن تُغفَر جميع الشـــرور والخطايـــا التي ارتكبتها في عمرك الفائت كله، والطبيعة القديمة التي صارت متمكنة فـــي نفسك ممكن أن تتلقى ضربتها القاضية في اللحظة ذاتها التي فيها تتحول إلـــى المسيح بالإيمان.

لقد كان ذلك اللص يقدر أن يقول بحق «إنما كخطوة بينـــي وبيـــن المـــوت». وهل الشخص الذي ينتظر الموت، بل الذي يموت فعلاً، بوسعه أن يخلُص أبديـــاً؟ نعم، لقد خلَّصه المسيح، وهو مستعد أن يفعل الشيء نفسه معك أنت أيضـــاً. لقـــد قيل عن الرب في إنجيل لوقا «هذا يقبل خطاة» (لو١٥: ٢)، وهـــا المســـيح، فـــي الإنجيل ذاته، يقبل ذلك اللص الأثيم. فما الذي يمنعك أنت أن تخلص؟

لكن قد يقول قائل: قد خلص هذا اللص في آخـــر لحظـــة، ولـــهذا ســـأؤجّل خلاصي أنا أيضاً إلى ما قبل الموت بساعات. لكني أقول لمثل هذا الشـــخص: لا تُحزن قلب المسيح الودود بمثل هـــذه الأفكـــار الشـــيطانية، ولا تُحـــزن روح الله القدوس، الذي يجاهد معك، بمثل هذه الأقوال. ثم أيضاً لا تُقامر بحيـــاتك، فـــهل تضمن أنت متى وأين وكيف ستكون ســـاعتك الأخـــيرة؟ لمـــاذا لا تســـتعد الآن؟ ولماذا تترك أهم أمر في حياتك إلى آخر لحظة؟ إنك بكل يقين أقرب إلى الأبديـــة مما تظن. ثم لماذا تقسّي قلبك؟ فأنت عندما تسمع صوت النعمة وتؤجل، تقسّـــي قلبك بنفسك. فعلى الجانب الآخر من صليب المسيح نرى صـــورة رهيبـــة مـــن قساوة القلب ممثَّلة في اللص الهالك. فهو في الحديد ولا يلين! في أتـــون النـــار وقلبه لا يذوب! على بعد أشبار من المخلص ويموت مجدِّفاً وبلا رجاء! ويقـــول سليمان الحكيم: «الكثير التوبيخ المُقسّي عنقه، بغتة يُكسر ولا شفاء» (أم٢٩: ١).

قيل إن لصاً واحداً قد خلص من فوق الصليب في آخر لحظات عمـــره حتـــى لا ييأس أي إنسان مهما كان وضعه، لكن واحداً فقط هو الذي خلص فيما الآخـــر

هلك، حتى لا يؤجل أحد أمر خلاصه إذ قد تضيع منه الفرصة إلى الأبد.

كيف خلص اللص؟

لقد رأينا أن هذا اللص، حتى بعد ما صُلِبَ، كان يُعيِّر الرب، كزميله تماماً، لكن بعد ذلك حدث التغيير العجيب في قلبه، إذ تاب وآمن فخلص، والرب قبله هكذا سريعاً. فليست أيام السجن هي التي قادته للتوبة، ثم جاءت اللحظة التي خلُص فيها وهو على الصليب، بل بسرعة انتقل من الظلمة إلى النور، ومن الموت إلى الحياة.

وما الذي قاله هذا اللص التائب للمسيح؟ لقد قال له: «اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك». ونحن لا ندري عن يقين من أين عرف ذلك اللص مسألة مُلك المسيح: هل هي تلك اللافتة التي وضعها بيلاطس كعنوان علته فوق رأسه على الصليب كنوع من التهكم؟ ربما يكون ذلك كذلك، فنحن نعرف أنه حتى غضب الإنسان يحمد الله، كما يقول المرنم في المزمور ٧٦: ١٠. والله قادر أن يرسل سهماً مستقيماً بقوس معوجة. وروح الله يقدر أن يستخدم أي شيء ليقود النفوس للخلاص. والواقع إننا نعجب كثيراً بمشهدين تجلت فيهما بصيرة الإيمان النافذة بصورة تدعو للعجب. المشهد الأول عندما أتى المجوس من المشرق ليسجدوا للملك العظيم المولود، لكنهم لم يروا طفلاً تحوطه هالات المجد الأرضي ويقيم في قصر عظيم، بل رأوا مولوداً متواضعاً في حضن امرأة بسيطة، في مكان بسيط. لكن إيمانهم اخترق حجاب الاتضاع ورأوا عظمة شخصه، فخرّوا وسجدوا له، وقدّموا له هداياهم: ذهباً ولباناً ومُرّاً. وأما المشهد الثاني فهو مشهد اللص التائب فوق الصليب، والإيمان هنا أروع وأعجب، فهو لم يرَ مجرد طفل تحمله الأيدي، بل رأى شخصاً مرفوضاً معلَّقاً على صليب العار. لكن اللص

رأى في ذلك المصلوب مسيح الله والملك الآتي عن قريب في ملكوته*.

ثم تأمل في كلمات اللص التائب من زاوية أخرى. لقد قال له «اذكرنـــي يا رب متى جئت في ملكوتك»، وهي كلمات جمعت بين البســاطة والتواضــع. فهو لم يقل له "أكرمني"، كما طلـــب شــاول الملك من صموئيل (١صم١٥: ٣٠)، ولا قـــال له أيضاً: "اغفـــر لـــي خطايـــاي وســـامحني بأفعالي وارحمني". بل كل ما جـــرؤ علـــى التطلع إليه هو أنه عندما يأتي الـــرب يســـوع في ملكوته فليذكره. لقد قال «اذكرني»: وهـو تعبير يشتمل على كل ما سبق، لكنـــه يشـــتمل في المقام الأول على ثقة بالمخلِّص. إنـــه لا يطلب أكثر من أن يذكره المســـيح، ويـــترك للمسيح اختيار الأسلوب الذي يذكره به. نعـم، لقد وثق به تماماً وركن إليه.

> عندما سأل هـيرودس الملـك المسـيحَ لم يجِبـه بشـيء، ولا أجاب بيلاطس. بل بعدما علِّق على الصليـب أيضـاً، لم يـردّ على تعيير رؤساء الكهنة ولا تجديف المجتازين. لكنه أجاب نداء ذلك اللص، وصرخة ذلك الخاطئ المستغيث.

ونحن نعرف أن المسيح، في صباح ذلك اليوم، عندما سأله هيرودس الملـك بكلام كثير لم يُجِبه بشيء، ولما سأله بيلاطس لم يُجِبه ولا عـــن كلمـــة واحـــدة حتى تعجب الوالي جداً. بل بعدما عُلق على الصليـــب أيضـــاً، عندمـــا عـــيَّره رؤساء الكهنة وجدَّف عليه المجتازون لم يرُد على تعييرهم وتجديفـــهم. لكنـــه أجاب نداء ذلك اللص، وصرخة ذلك الخاطئ المستغيث. لقد وصل نداء ذلـــك اللص في الحال إلى أذن المسيح وإلى قلبه، فقال له الرب «الحق أقول لك: إنـــك

---

* لقد كانت كلمات ذلك اللص للمسيح تمثل كلمات الاحترام الوحيدة التي وصلـت آذان الـرب بعـد ساعات طويلة فيها سمع المسيح من كلمات الهزء والتعيير والشتيمة ما يجل عن الحصر.

اليوم تكون معي في الفردوس».

في مشـــهدِ الشـرِّ الـذي بـالظُلمِ ضـجَّ وأرعَـــدَ
ورئيسُ هذا العـالمِ الـــ ـشـريرَ هـاج وعربَـدا
سطعَ ضياءُ الحـبِ يُثـــ ـلِجُ في الصدورِ الأفئـــدةْ
فاللصُ نـــالَ العفـوَ حَـا لاً حينمـا قَبِـــلَ الفِـــدا
قالَ لـــهُ: اذكُرْتـــي متـى جئـتَ بمُلكِـــكَ سـيِّداً
فأجابـه: اليـــومَ تكـــو نُ معـي وتبقـى للمـــدى

هذا كله حدث يوم ضعف المسيح، فالكتاب المقدس يقول إنه «صُلِـبَ مـن ضعف» (٢كو١٣: ٤). فإذا كانت صرخة شرير مستغيث استجابها الرب بمثـل هذه السرعة في يوم ضعفه، فهل تظن أنه يتوانى في الخـلاص اليـوم؟ أو أن شخصاً يستغيث به وتضيع صرخته هباء؟ إذا كان المخلِّص المـائت قـدر أن يخلص فكم بالأحرى المخلص المُقام، الذي انتصر على الموت، والـذي ارتفـع إلى المجد؟ إذا كان وهو على الصليب قد تجاوب مع نداء خاطئ تائب، وفتـح أمامه باب الفردوس، فماذا وهو الآن على العرش؟ إذا كان، وهو مُجـرَّد مـن كل شيء، ردَّ على اللص هذا الرد العجيب، فماذا يكون وقـد دُفِـع إليـه كـلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض؟

لقد أظهر المسيح في هذا اللص معرضاً، لا لنعمته فقط، بل لقوتـه أيضـاً، في اليوم نفسه الذي فيه كانت قوته محجوبة خلف الغيوم، وذلك عندما قـال لـه «الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس». أيوجد أعجب من هـذا الانتقال السريع من دائرة الغضب إلى دائرة النعمة، ثم إلى دائرة المجد؟! لقـد أقام الله ذلك اللص التائب ليكون معلِّماً للإيمان والتوبة، للبسـاطة والشـجاعة،

للثقة والرجاء. فهل نستحي أن نتعلم من شخص نظير ذلك اللص؟ أما الـدرس الذي نتعلمه منه، فهو أن النظرة بالإيمـان إلـى المخلـص المصلـوب كافيـة للخلاص. هذا هو مجد النعمة.

سبعة دروس من أعتى اللصوص

أريد الآن – بنعمة الرب – أن أشير إلى عمل الله في هذا اللـص التـائب، وهو عمل سُباعي كالآتي: الانفصال، المخافة، التوبـة، البصـيرة، الإيمـان، الشجاعة، الصلاة.

١– **الانفصال:** وهو ما أشار إليه الرسول بطرس بـالقول «تقديـس الـروح للطاعة» (١بط١:٢). فالروح القدس يفرز الشخص ويفصله عـن كـل البشر ليتصرف، لا كما يتصرف الآخَرون، بل كما يوجهّه ويعلّمـه روح الله. وهذا ما نراه هنا في هذا اللص. فلقد توقف عن تعيير المسيح كمـا كان يفعل هو في البداية، وكما استمر يفعلـه الآخـرون حتـى النهايـة. والواقع أنه أسهل جداً أن يسبح الشخص مع التيـار، ومـن العسـير أن يصارع ضده. وفي مشهد الصليب كان كل الناس ضد الـرب يسـوع، لكن ذلك اللص وقف في الساحة بمفرده، وقف وحده ضد كل العالم.

٢– **مخافة الله:** بمجرد أن فصله روح الله عن البشـر المحيطيـن فقـد قـال لزميله: «أ ولا أنت تخاف الله؟». ما أعجب أن نرى ثمر التقوى في قلـب شخص كهذا اللص، الذي، طوال عمره، لم يعمل حساباً لله قط. إننا في هـذا اللص نرى ليس الخوف من الله، الذي هو إحدى ثمرات الخطية، بل خـوف الله وهو ثمرة من ثمار عمـل الله فـي النفـس، بـل هـو رأس الحكمـة (مز١١١:١٠). ومن فوق ذلك الصليب تحققت كلمات الجامعة «قد عرفـت

أن كل ما يعمله الله أنه يكون إلى الأبد.. وأن الله عمله حتى يخافوا أمامه» (جا٣:١٤). ونتيجةً لثمر التقوى ومخافة الله في قلبه، فإنه توقف عن الاشتراك في أعمال الظلمة غير المثمرة وبدأ يوبخها (أف٥:١١).

٣- **التوبة:** إذ قال لزميله «أولا أنت تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟ أما نحن، فبعدل، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا». لقد دان هذا اللص الشر في نفسه عندما قال «نحن... ننال استحقاق ما فعلنا». أي أنه أقرّ باستحقاقه لموت الصليب، بعكس زميله الذي قال للمسيح «إنْ كنتَ أنت المسيح فخلِّص نفسك وإيّانا!». والتوبة اللازمة للخلاص تعني تغيير الفكر بالنسبة للخطية. إنها الحزن على الخطية وكراهيتها وتركها. لكنها – كما نرى في هذا اللص– أعمق من ذلك أيضاً، فهي تتضمن اكتشاف عمق خرابنا وفسادنا التام وعدم استحقاقنا لشيء. إنها ليست فقط الحكم على الخطية، بل أيضاً الحكم على النفس نتيجة الضمير الذي تيقَّظ بفعل روح الله.

٤- **البصيرة:** إذ قال عن المسيح لزميله «أما هذا، فلم يفعل شيئاً ليس في محله». لقد عرف ذلك اللص المسكين أفضل مما عرف رؤساء الكهنة وقادة الأمة. ففي نظر الكتبة والفريسيين لم يعمل المسيح شيئاً في محله، لكنه في نظر ذلك اللص الذي جلى الله بصيرته «لم يفعل شيئاً ليس في محله». ما أجلى البصيرة التي جعلته يلاحظ الفارق الكبير بينهما (هو وزميله) وبين المسيح ولو وضعوه في الوسط، كما جعلته يرى في يسوع، مسيح الله ومُخلّص الخطاة، والذي إن كان قد أخذ فوق الصليب مكان الدينونة فقد أخذه بالنعمة فقط.

٥- **الإيمان:** ويعلِّمنا الكتاب المقدس أنَّ الخلاص هو بالتوبة وبالإيمان. ولقد أظهر ذلك اللص توبته في كلماته لزميله، كما أظهر الإيمان في كلماته

للمسيح إذ قال له: «اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك». فذلك اللص لم يتحول من معيِّر للمسيح إلى شخص يرثي له كما فعلت بنات أورشليم (لو٢٣: ٢٧،٢٨)، ولا حتى ليظهر له الرحمة، بل إنه إذ أحس بعظمته فقد طلب منه الرحمة! والإيمان الذي يخلِّص ليس إيماناً عقائدياً أو معرفة بحقائق تاريخية. إنه ليس الاقتناع بشخص المسيح أو الإعجاب به. بل هو في المقام الأول الإركان الكليّ إلى المسيح بالنسبة للحاضر والأبدية. صحيح إنَّ الإيمان الذي يخلِّص يتضمن معرفة الحق الخاص بالمسيح كما يعلنه الكتاب المقدس، لكنه يتضمن أيضاً حالة القلب في موقفه من ذلك الشخص المجيد.

هذا اللص يوبِّخ مؤمني اليوم الذين يَخجلون من المجاهرة بالمسيح وسط عالمٍ معادٍ له. ألا تخجل كلنا من قوة شهادة ذلك اللص يوم أن كان المسيح مصلوباً بالمقابلة مع شهادتنا الباهتة الضعيفة، مع أن المسيح اليوم ممجَّد في السماء؟!

٦- **الشجاعة:** ما أعظم شجاعة ذلك اللص إذ يعترف بالمسيح ملكاً وباراً وربّاً. فعندما تداعى إيمان الرسل تشامخ إيمان ذلك البطل. لقد قدَّم في إيمانه فضيلةً (٢بط١: ٥). ولا شك أن هذا اللص يُخجِل عشرات الآلاف من المؤمنين اليوم الذين يَخجلون من المجاهرة بالمسيح وسط عالَمٍ معادٍ له، ناكرٍ لصليبه، وناكرٍ لربوبيته. نعم، ألا نخجل كلنا من قوة شهادة ذلك اللص يوم أن كان المسيح على الصليب بالمقابلة مع شهادتنا الباهتة الضعيفة، مع أن المسيح اليوم مُمَجَّد في السماء، وجالس عن يمين الله وقد دُفِع إليه «كلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض»؟

٧- **الصلاة:** هذا الخاطئ العاتي ربما لم يُصلِّ لله في كل حياته. أما وقد عمل فيه روح الله فها نحن نسمعه يصلي إلى الرب «اذكرني يا رب متى جئت

في ملكوتك». ومع أن الفارق، بحسب البشر، بين لص قاتل وفريسي هو شاول الطرسوسي، فارق هائل، إلا أنهما بعد الإيمان الحقيقي جمعهما شيء مشترك هو الصلاة. وما كان أحلى صرخة هذا الوليد الجديد وهو في مهده العجيب (الصليب) في أذني ذاك المصلوب إلى جواره، والذي قال بعد ذلك عن شاول الطرسوسي «هوذا يصلي» (أع٩: ١١).

إيمان عجيب

أشرنا إلى أن إيمان ذلك اللص الذي تاب وهو مُعلَّق على الصليب إلى جوار الرب يسوع هو إيمان عجيب، ربما لم يرتق إيمان منذ بدء الخليقة نظيره. ويشتمل هذا الإيمان العجيب على سبعة أمور مجيدة كالآتي:

أولاً: لقد آمن ذلك اللص بالخلود، وبأنْ هناك بعد الموت وجود. وإلا فما الداعي لأن يدعو زميله إلى خوف الله؟ ما فائدة خوف الله لشخص سيودِّع الحياة بعد ساعات، إذا كان الموت هو نهاية كل شيء؟ وإذ تضمَّن إيمان ذلك اللص هذا العنصر، فإنه لم يطلب الخلاص من آلامه الجسدية الحالية، بل طلب أن يذكره المسيح في يوم مُقبِل.

ثانياً: آمن اللص أيضاً برحمة الله العجيبة، ولهذا فقد اعترف وأقرَّ بذنبه العظيم. عند البشر، يعتبر الاعتراف هو سيد الأدلة، فيحاول الجاني قدر استطاعته أن يتجنب الاعتراف. أما عند الله فالإقرار بالذنب هو خطوة لا بد منها للحصول على الغفران، وذلك لأن البديل الكريم دفع الحساب عن كل تائب مؤمن. قال الحكيم «مَنْ يكتم خطاياه لا ينجح، ومَن يقرُّ بها ويتركها يُرحَم» (أم٢٨: ١٣).

ثالثاً: أقرَّ ذلك اللص ببر المسيح وبكمال ناسوته الفريد. والجو الذي تم فيه ذلك الإقرار لافت للنظر، فعندما تداعى إيمان الرسل تشامخ إيمان اللص!

وعندما أجمعت الأمة أن يسوع مستوجب الموت، أعلن ذلك البطل أن المسيح لم يفعل شيئاً ليس في محله!

رابعاً: اعترف اللص أيضاً بلاهوت المسيح وبربوبيته. لقد سمع تهكمات رؤساء الكهنة «إن كنتَ ابن الله فانزل عن الصليب» (مت٢٧: ٤٠)، والمسيح لم يرد على تعييرهم، ولم ينزل. لكن ذلك اللص بالإيمان – لا بما تراه الأعين – رأى اللاهوت في ذلك المصلوب الأوسط، فقال له «يا رب».

خامساً: اعترف اللص بأن يسوع هو المخلِّص، فقال له «اذكرني». دون أن يحدِّد له الطريقة التي بها يذكره، واثقاً في صلاح المسيح. وقديماً نسي رئيس السقاة يوسف عندما قال له: «اذكرني»، أما يوسف الحقيقي فلم ينسَ قط مسكيناً استغاث به!

سادساً: اعترف اللص بأن ذلك المصلوب إلى جواره هو الملك، كما عرف أيضاً أن له ملكوتاً. فمع أنه كان مُعلَّقاً على صليب العار، لا مُكلَّلاً بتيجان المُلك وأكاليل الفخار، ومع أنه كان مُعتَبراً كأنه واحد من الأثمة، لا مُحاطاً بحاشية من الوزراء، وتخدمه مجموعة من العبيد والخدم، فإنه رغم ذلك رأى فيه – بالإيمان – ملكَ اليهود.

سابعاً: آمن بمجيئه الثاني عندما قال له «اذكرني يا رب **متى جئت في** ملكوتك». فلقد عرف ذلك اللص أفضل من بعض دكاترة اللاهوت الذين لا يعرفون سوى ملكوت المسيح الروحي الحاضر. لقد تعلَّم من روح الله أن المسيح سيأتي ثانية ليؤسس ملكه. أو كما قال المسيح عن نفسه إنه «ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه مُلكاً ويرجع» (لو١٩: ١٢). وها ذلك اللص يقول للرب «اذكرني... متى جئتَ في ملكوتك*».

---

* ليس متى جئت لتملك، بل متى جئت في ملكوتك، أو متى جئت ملكاً (رؤ١٩: ١٦).

رد المسيح العجيب

كان هذا إيمان ذلك اللص. وما أروعه إيمانـــاً! فبمـــاذا أجابـــه الـــرب؟ أو بالأحرى ماذا كان تَجاوب النعمة الغنية مع هذا الإيمان العظيم؟ لقد كان التَّجـــاوب رائعاً كذلك، إذ قال له المسيح «الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس».

«الحق أقول لـك» ...	**يا للتـأكيد!**
«إنـــك اليـــوم» ...	**يا للسـرعة!**
«تكون معـــــي» ...	**يا للرفعـة!**
«في الفـــردوس» ...	**يا للمجـــد!**

لقد أعطى الرب ذلك اللص التائب، نتيجة طلبته، أكثر جداً ممـــا طلـــب أو افتكر (أف٣: ٢٠).

فلقد ترجَّى ذلك اللص الخير في يوم عتيد بعيد، لكـــن المســـيح قـــال لـــه: «اليوم»، بل إنه لحظة الرقاد هنا سيكون مع المسيح في المجد هناك.

ولقد طلب اللص نصيباً في ملكوتٍ أرضيٍّ، فأعطـــاه الـــرب نصيبـــاً فـــي فردوسٍ سماوي؛ ذلك المكان الرائع، حيث الجمال والسلام والمجد.

ولقد طلب اللص أن يذكره المسيح، فأجابه الرب بأنه لن يذكره فقـــط، بـــل سيكون معه، سيكون في رفقته.

قال أحدهم "إن واحداً من المصلوبين الثلاثة مات بلا رجاء، أما الآخـــران فقد أخذا موعد لقاء في السماء. وهذان الآخران أحدهما هو ابـــن الله، يســـوع البار، والثاني هو لص أثيم من الفجار!"

تفنيد هرطقات

وكلمات المسيح هنا للّص تعتبر أول إعلان في الكتاب المقـــدس علـــى أن أرواح القديسين تذهب فور الرقاد إلى وجود حقيقي وشعور كامل في جو البركة مع المسيح.

- لقد اخترع البعض هرطقة **رقاد النفس** التي بنوها علـــى كلمـــات ســـليمان «الموتى لا يعلمون شيئاً» (جا٩:٥). وأولئك الذين يعلّمـــون بخرافـــة نـــوم النفس بعد الموت قرأوا هذه الآية هكذا "الحق أقول لك اليوم: إنـــك تكـــون معي في الفردوس". وهم بهذه القراءة المغلوطة لا يخدعون سوى نفوســـهم وكل الذين في قلوبهم غرض وفي نفوسهم مرض. كـــلا بـــل إن الرقـــاد للأجساد، أما النفوس والأرواح فإنها تذهب في نفس اللحظة التـــي يحـــدث فيها الموت لتكون مع المسيح في الفردوس (في١:٢٣،٢٤).
- وآخرون اخترعوا ما هو أشر، أعنى به **خرافة المطهر** الذي يُعـــذَّب فيـــه المؤمنُ ليؤهل للسماء. والواقع أنه لو كان هناك إنسان أحوج إلى المطـــهر من غيره لكان هو ذلك اللص. فكون اللص لم يذهب إلـــى هـــذا المطـــهر المزعوم، يدل على أن هذا الفكر هو محض خرافة مـــن خرافـــات العقـــل البشري السخيف، تماماً مثل الخرافة السابقة. إن كلمـــات المســـيح لـــهذا اللص هنا تنفي تماما هاتين الخرافتين.
- وهناك أيضاً فكر لدى البعض عن شـــيء اســـمه **اللمبـــوس***. والكتـــاب

---

* هذا الفكر هو وليد قصة "دانتي" الذي يُعتبَر أشهر تلاميذ "توما الأكويني" (القـــرن الثـــالث عشـــر) حيـــث عبّر عنه في روايته "الكوميديا الإلهية"، والتي فيها شرح فكره عن السماء والجحيـــم والمطـــهر، وفيـــها قال إن اللمبوس هذا عبارة عن ظلال قاتمة بلا آلام شديدة، حيث تتصاعد أحزان بلا ألم. ولقـــد اســـتمد هذا التعليم سلطته بمرسوم من البابا "أنوسنت الثالث" نحو عام ١٢٠٠م حيث قـــرر أن عقوبـــة الخطيـــة الأصليه هي الحرمان من رؤية الله، أما عقوبة الخطايا الفعلية فهي عذاب النار الأبدية.

المقدس لا يكلمنا سوى عن الهاوية في العذاب لِمَن رفض خلاص المسيح المجاني، والفردوس لكل من قبله، حتى ولو كان مثل هذا اللص الجاني، الذي تاب وآمن في آخر لحظات عمره. نعم، فهذا اللص لا ذهب إلى المطهر ولا إلى اللمبوس، بل إلى الفردوس.

- والمسيح أيضاً لم يذهب إلى الجحيم من قِبَل الصليب، كما يُعلِّم البعض، بل إلى الفردوس، وقبيل موته قال لأبيه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي» (لو٢٣:٤٦).

يا لروعة النعمة! فبينما الإنسان يطرد مسيح الله من الأرض قاتلاً إياه، فإن المسيح يقبل لصاً قاتلاً في فردوس الله. لقد كان عجيباً أن يغمض لعازر المسكين عينيه هنا على الأرض، وهو وسط الأوحال والمزبلة، ليجد نفسه في حضن إبراهيم، لكن أعجب منه أن يغمض ذلك القاتل عينيه فوق الصليب ليجد نفسه في فردوس الله!

يا لروعة النعمة! فبينما الإنسان يطرد مسيح الله من الأرض قاتلاً إياه، فإن المسيح يقبل لصاً قاتلاً في فردوس الله.

ولكم تعجب الملائكة في ذلك اليوم عندما شاهدوا اللص يدخل إلى الفردوس بعد المسيح مباشرة، وكأن المسيح قال لهم: "لا تغلقوا الباب، فورائي شخص قادم". وكم كانت دهشتهم إذ كان هذا الشخص لصّاً ليس له أي رصيد من الأعمال الصالحة. وكأن المسيح يرد على دهشة الملائكة في ذلك اليوم بالقول: "هذا مجرد عينة لكثيرين سيأتون من بعده". نعم يا أخي العزيز، فهذا هو مجد النعمة. وما السماء إلا مكان لخطاة بحسب الطبيعة غسلهم دم المسيح، وطهَّر الإيمان قلوبَهم وضمائرهم. وهذا كله مُقدَّمٌ للجميع، لكل من يريد، بالنعمة المجانية وحدها.

«الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس» هذه هي السماء التي تنتظرنا يا أخي العزيز. فليست السماء مكاناً شوارعه ذهبية، وأبوابه لؤلؤية، وأنواره لا تغيب. فمع أن هذا كله صحيح، لكنَّ السماء بغير المسيح لا تكون سماءً. إن السماء هي الوجود مع المسيح، وذاك أفضل جداً. إن جمال السماء ومتعتها ليس أننا سنخلص من متاعب الحياة وآلام الزمان الحاضر، بل أننا سنتمتع بالمسيح ونكون معه بلا افتراق.

لهذا تألم المسيح لأجلنا خارج المحلة، ليضمن لنا مكاناً معه داخل الحجاب. ولهذا عُلِّق فوق صليب العار، كي ما نشاركه في بيت الآب إلى أبد الآبدين.

كلمات الهجر

ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الأرض إلى الساعة التاسعة. ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً:

إِيلِي، إِيلِي، لَمَا شَبَقْتَنِي؟

أي:

إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟

(مت ٢٧:٤٥، ٤٦)

تأملنا، في ما سبق، عبارات المسيح الثلاث الأولى مـــن فــوق الصليــب، والتي نطق بها في ساعات النور. أما العبارة التي نتحدث عنها الآن فلقد نطــق بها بعد ساعات الظلمة. لذا دعنا الآن أولاً ننشغل برسم الخلفية التي منها نطــق ربنا الكريم بهذا النطق الخالد.

جو الجلجثة

الظلمة المعجزية: لقد سجّل العديد من المؤرخين حادثة الظلمة في أســـفار أخبارهم. فمثلاً ذكر أوريجانوس، المعلِّم المسيحي المشهور، أنه اطَّلع على مـــا سجله الوثنيون بشأن هذه الحادثة. وترتوليـــان، فـــي أواخـــر القـــرن الثـــاني الميلادي، قرر أن أعداء المسيحية أنفسهم سجلوها فـــي بطـــون محفوظاتـــهم. ولكن بالنسبة للمؤمن يكفيه جداً أن الوحي سجلها، ولا يحتاج بعدها إلـــى دليـــل آخر، أو إلى شهادة أحد من الناس. ويهمنا أن نوضّح أن هذه الظلمة لـــم تكـــن كسوفاً عادياً للشمس، لأن المسيح صُلِبَ في يوم عيد الفصـــح اليـــهودي، وهـــو اليوم الرابع عشر من الشهر القمري، أي عندما يكون القمـــر بـــدراً، أي فـــي مواجهة الشمس، مما يستحيل معه، وهو في هذا الوضع، حدوث الكسوف. ثـــم إن الكسوف الذي نعرفه، متى حدث، لا يزيد عن دقائق معدودة.

هذه الظلمة – إذاً – هي واحدة من الآيات التي صاحبت الصليب. وذاك الـــذي ارتبط ميلاده بظاهرة فلكية عجيبة (مت٢:٢،٩،١٠)، ارتبط موته كذلك – كما نقـــرأ الآن – بظاهرة فلكية أخرى عجيبة! فهل هو قليل أن الخالق العظيم لكل شيء يُولَـد كباقي البشر، ويوضع في مذود حقير كأنه أقل من البشر؟! ثم أليـــس أعجـب أن يموت في النهاية معلقاً فوق صليب، ثم يوضع بعد ذلك في قبرٍ موحشٍ كئيب؟!

إننا نتذكر أنه في الليلة التي وُلِد فيها المسيح أتى ملاك الرب إلـــى رعـاة يحرسون غنمهم على روابي بيت لحم، ويقول لنا البشير لوقا إن مجـــد الـرب أضاء في ليل الرعاة (لو٢:٨،٩). وهنا نقرأ، في يوم موته، عن ظلمة تغطـــي الأرض في منتصف النهار. نعم، فهو عظيم وابن العلي يُدعَى، ولذلـــك ففـي مولده تحول الليل نهاراً، وفي موته استحال الضياء ظلاماً!

إن الظلمة التي حدثت في الجلجثة هي حقاً ظلمة معجزية. فإن كان النـور عادة هو الذي يطرد الظلمة، فإن تلك الظلمة هي التي غيَّبت نور الشـمس فـي الظهيرة. ويا له من معنى خطير، ويا لرهبة قدرة الله القدير! ومن نصـــوص الكتاب نفهم أن هذه الظلمة لم تحدث تدريجياً، ولا تلاشت تدريجيـاً، بـل إنـها خيَّمت دفعة واحدة في البداية، ثم انقشعت دفعة واحدة في النهاية. حتـــى إننـا نستطيع أن نقول إنه كان لها معنىً رمزيّ يرتبط بآلام الصليب خلال ســـاعات الظلام، وبصرخة المتألم القدوس في ختام تلك الساعات.

الصمت المطبق: سبقت هذه الظلمة ثلاث ساعات كان المسيح فيـها معلقـاً فوق الصليب، وفيها تكلم المسيح بعباراته الثلاث الأولى التي تأملناها فـي مـا سبق. وفيها، بعد أن قسم العسكر ثياب المصلوب واقـترعوا علـى قميصـه، راحوا يسخرون منه. وفيها رؤساء الكهنة والكتبة، بعـد أن اعـترضوا علـى العنوان الذي كتبه بيلاطس فوق صليب يسوع، راحوا يتهكمون عليه ويتحدّونـه

أن ينزل من على الصليب. كما أنه بعد تلك الساعات الثلاث دبَّت الحركة في المشهد من جديد، فتكلَّم يسوع، كما أخذ جمهور المتفرجين يروحون ويغدون. أمَّا في الساعات الثلاث فلا نرى سوى الظلمة، ولا نسمع سوى الصمت. لقد استولت على الجميع حيرة من شعور غامض بالخوف مُركَّز في الصليب والمصلوب. ويسجل البشيرون أن قائد المئة الروماني لما رأى ما كان «مَجَّد الله قائلاً: بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً ... حقاً كان هذا ابن الله» (لو٢٣:٤٧؛ مت٢٧:٥٤).

* * * *

لقد اعتبر بعضهم تلك الظلمة التي غطت الجلجثة أنها كانت تعبيراً عن حزن الخليقة على موت خالقها فاتشحت بالسواد. ومع أن هذا التعبير جميل، فإنني أعتقد أن المعنى أعمق من هذا. فالأرجح أن الظلمة حدثت لأن الله الديان في ذلك الوقت كان يتعامل بالعدل مع ربنا يسوع المسيح، الذي قَبِل أن يأخذ مكاننا ويحمل دينونتنا. وهذا التعامل بين الله والمسيح ليس لمخلوق – كائناً من كان – أن يتجاسر ليدخل أو يحاول أن يعرف ما دار فيه. لذلك لفَّ الكونَ ظلامٌ، وأطبق على الجميع سكونٌ. فنحن لا نسمع طوال ثلاث ساعات كاملة كلمة لأحد، إلى أن قطع المسيح هذا السكون بالصرخة التي ستكون موضوع تأملنا الآن.

وإزاء هذا الصمت المطبق، وأمام هذا الظلام، كيف يمكننا أن نفهم ما كان يجري في تلك الساعات الرهيبة؟ على أنه إن كانت قصة الأناجيل لا تعطينا وصفاً لما حدث، فلنتحول إلى أقوال الأنبياء وكلمات المزامير التي تصف لنا مشاعر المسيح في ذلك الوقت. ثم لنستمع إلى صرخته في نهاية ساعات الظلمة «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» لنفهم ما حدث فيها، ونجتلي بذلك القليل من أسرار الفداء.

أحزان الجلجثة

هل تتذكر بستان جثسيماني؟ لماذا كانت نفس المسيح حزينـــة جـدا فـي البستان؟ لماذا كان في جهاد وكان يصلي بأشد لجاجة؟ لماذا أرسل الله ملاكـاً من السماء ليقوّيه؟ السبب أنَّه هناك شاهد السحب السوداء الكثيفة التـي كـانت ستصُبُّ غمارها على رأسه القدوس في الصليب. فماذا نتوقع أن يكـون حالـه عندما وصل إلى الصليب؟ إنه هنا في الجلجثة شرب الكـأس الرهيبـة التـي فزعت نفسه عندما تأمل محتوياتها في البستان.

ويمكننا تقسيم آلام الجلجثة وأحزانها إلى عناصر ثلاثة:
مياه غامرة، نيران آكلة، ظلمة دامسة.

١- **مياه غامرة:** استمع إليه يقول - بحسب المزمور ٤٢ «غَمـرٌ ينـادي غمراً عند صوت ميازيبك. كل تيارتك ولججك طمت علـيَّ». قديمـاً جـاء الطوفان على العالم بسبب شر الانسان، وتعاظمت المياه جداً، وغطَّـت جميـع الجبال الشامخة. لكنها على أية حال كانت مياهاً عادية، أما بالنسـبة للمسـيح على الصليب فلم تكن مياهاً عادية. يقول في المزمور ٦٩ «خلِّصنـي يـا الله، لأن المياه قد دخلت إلى نفسي. غرقتُ في حمأة عميقة، وليس مقـر. دخلـت إلى أعماق المياه، والسيل غمرني... نَجِّني من الطين فلا أغرق». وهذا كلـه تصوير لحماقاتنا وذنوبنا التي وُضِعَت على المسيح. لقد أحاطته الخطيـة مـن كل جانب وغطته بالتمام، وهو الذي لم يعرف خطية!

٢- **نيران آكلة:** في سفر مراثي إرميا يقول المسيح بـروح النبـوة «أَمَـا إليكم يا جميع عابري الطريق؟ تطلَّعُوا وانظروا إنْ كان حـزن مثـل حزنـي

الذي صُنِعَ بي، الذي أذلني به الرب يوم حُمُوّ غضبه؟ من العلاء أرسل ناراً إلى عظامي، فسَرت فيها». إن تلك النيران التي اشتعلت في مخلِّصنا في ساعات الظلمة كانت أشد هولاً من نيران الأتون المحمى سبعة أضعاف في بابل (دا ٣). هل تتذكر ماذا فعل الله بسدوم وعمورة؟ كيف أمطر الله عليهما ناراً وكبريتاً، فأحرقهما (تك١٩)؟ لكنّ كراهية الله ضد الخطية لم تُرَ بصورة أكثر هولاً مما نراه في صليب المسيح.

على مدى أربعة آلاف سنة قبل المسيح، كانت النيران تأكل الذبائح التي تُقدَّم لله. لكن لم توجد ذبيحة قَدِرت أن تُنهِي تلك النيران، بل إن النيران الإلهية هي التي أتت على جميع الذبائح، ولم تنطفئ النار بعد. ذلك لأن كل تلك الذبائح الحيوانية كانت محدودة، ولا تقدر أن توفي الله غير المحدود حقوقه. حتى أتى المسيح، الذبيح العظيم، والفادي الوحيد، حمل الله الكريم، هو وحده أمكنه أن يحتمل كل تلك النيران وينهيها تماماً بالنسبة لنا.

> يا للعجب! حمل الله خارج المحلة! محبوب الآب في مكان المطرودين من محضر الله! القدوس البار مثله مثل البرَص، بعيداً عن مقادس الله!

إن الحيوانات التي كان يُدخَل بدمها إلى الأقداس للتكفير، كانت تُحرَق أجسامها خارج المحلة. وها المسيح هنا يقوم بعمل الكفارة العجيب، وها جسده يُصلَى بنار اللهيب.

يا للعجب! حمل الله خارج المحلة! محبوب الآب في مكان المطرودين من محضر الله! القدوس البار مثله مثل البرَص، بعيداً عن مقادس الله! وآه من نيران الجلجثة التي اشتعلت في المسيح في ساعات الظلمة الثلاث، إنها نيران جهنم مُركَّزة، قاساها حمل الله لأجلنا هناك!

٣- **ظلمة دامسة:** أمر ثالث تحمَّله المسيح في ساعات الصلب هذه. اسمعه يقول، بحسب مزمور ٨٨ «وضعتني في الجب الأسفل، في ظلمات، في أعماق. عليَّ استقرَّ غضبك وبكل تياراتك ذللتني». وما هذه الظلمة إلا تعبير عن الخطية. أو هي تعبير عن قسوة الموت الذي قاساه ربنا يسوع المسيح. كانت الظلمة شهادة لآلام المسيح غير الظاهرة في موته الكفاري؛ تلك الآلام التي كانت توقعها يد غير منظورة، هي يد العدل الإلهيّ على من جُعِلَ خطيةً، وحمل في جسده خطايانا على الخشبة.

وما أرهب تلك العبارة «عليَّ استقرَّ غضبك». يتساءل ناحوم النبي قائلاً: «مَن يقف أمام سخطه؟ ومن يقوم في حُمُوّ غضبه؟» (نا١:٦). والإجابة الواضحة أنه لا يوجد إنسان يقدر أن يقف أمام سخط الله، وأن يقوم في حموّ غضبه. نعم، لا يوجد سوى المسيح الذي قدر أن يحتمل ذلك الغضب الرهيب جداً. احتمله - تبارك اسمه - في ساعات الظلمة هذه.

* * * *

قارئي العزيز: هل بان غضب الله على العالم القديم عندما فاض عليه الماء فهلك؟ وهل تجلَّى ذلك الغضب عندما رمَّد مدينتي سدوم وعمورة، وجعلهما عبرة مكابدة عقاب نار أبدية؟ وهل ظَهَر أيضاً عندما صنع بفرعون وبالمصريين أحكاماً؟ وعندما كان الظلام الدامس على أرض مصر لمدة ثلاثة أيام؟ وهل نستشعر سخطه الشديد عندما أقسم ألا يدخل الشعب غير المؤمن إلى أرض الميعاد، بل طرح جثثهم في القفر؟ نعم، لكن غضب الله ضد الخطية لا نجده في أي وقت أو أي مكان مثلما نراه في الجلجثة، عندما كان ابن الله معلَّقًا على الصليب، تغمره الأوحال، وتتخلله النيران، ويلفه الظلام، متروكاً من الله!

منفرداً فوقَ الصليبِ قد تُركتْ ولم تَجِدْ حولكَ عَيناً أشفقتْ
والآن عن يمينِ اللهِ قد رُفعتْ تُردِدُ السماءُ مدحَ ما فَعَلْتْ

فهل هُناكَ اللهُ قد تركَكَ وعن صراخِكَ بعيدا قد غدا
فالآنَ في الوجهِ الذي قد أُفسِدَ نقرأُ مَجدَ اللهِ فائقاً بَدا

هوذا الإنسان، رجل الأحزان

لقد تألم المسيح في كل حياته، فكان بحق رجل الأوجاع. في طفولته تألم من الإنسان ممثَّلاً في هيرودس، قاتل صبيان بيت لحم، فاضطر أن يهرب به يوسف وأمه إلى مصر. وفي بداية خدمته تألم من الشيطان عندما اقتاده الروح إلى البرية ليُجرَّب أربعين يوماً من إبليس. أمّا في ساعات الظلمة، في الجلجثة، فنرى شيئاً مختلفاً تماماً: أنه كان يتألم من الله الديان. وما أشد تلك الآلام! إنها أشد بما لا يقاس من كل الآلام الجسدية، وأقسى بكثير من كل الآلام النفسية. فالمسيح احتمل الآلام الجسدية الرهيبة ولم يفتح فاه، وعانى الآلام النفسية القاسية دون أن ينبس ببنت شفة، أما أمام الآلام الكفارية، وأمام حموّ غضب إله السماء الذي انصبَّ عليه، فقد صرخ صرخته المُرَّة «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟»

لقد تميَّز مشهد الجلجثة في الثلاث ساعات الأولى من الصليب بظلمة أدبية وروحية من الناس الأشرار الذين كانوا عند الصليب، أما الثلاث ساعات التالية فكانت هناك ظلمة من نوع آخر، أكثر رعباً وأشد هولاً. وإن كان المسيح في ساعات النور تحمّل بشاعة الخطية، فإنه في ساعات الظلام حمل عقوبتها. فالله جعله خطية، وفيه «دان الخطية في الجسد» - أصل كل الشرور

والنجاسات. كما أنه حمل خطايانا – الأفعال الشريرة ذاتها، وتألم مـــن أجلـــها (٢كو٥: ٢١؛ رو٨: ٣؛ ١بط٢: ٢٤؛ ٣: ١٨)

هنا نحن نرى الثمن الحقيقي للفداء، عندمـــا تـــرك الله المســـيح. إنَّ أفكـــار الناس من كل الأجناس، وقلوب الملايين من كل القبائل والشـــعوب ترنـــو لذيـــاك الصليب، وتميل لتنتظر هذا المنظر المهيب. فالصليب هو قلب الإيمان المســـيحي، وتلك الصرخة هي قلب الصليب، وهذه العبارة مـــن فـــوق الصليـــب مـــن بيـــن عبارات المخلِّص السبع هي قلب كل العبارات.

إنَّ أفكار الناس من كل الأجناس ترنو لذياك الصليب، وتميل لتنتظر هذا المنظر المهيب. فالصليب هو قلب الإيمان المسيحي، وتلك الصرخة هي قلب الصليب، وهذه العبارة من فوق الصليب من بين عبارات المخلص السبع هي قلب كل العبارات.

نعم، «نحو الساعة التاسعة (وهي تعادل الثالثة بعد الظهر بتوقيتنا الحاضر) صـــرخ يســـوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي، إيلي، لَمَا شـــبقتني؟ أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتنـــي؟» أيُّ ذهـــن يقدر أن يسبر غور أعجوبة الأعاجيب هـــذه؟ أيُّ فكر يقدر أن يتخلل أستار الظـــلام هـــذه؟ أيُّ عقل يقـــدر أنْ يفسِّـــر أو يفلســـف تلـــك الصرخة التي لم يُسمَع نظيرها، ولن يُسمَع؟

ولقد تحمَّل المسيح كل هذا من أجلنـــا. فـــإذا أردنا أن نعرف عُلوَ محبة المســـيح تجاهنـــا، فعلينا أولاً أن نعرف عمق الألم الـــذي قاســـاه لأجلنا. والواقع إن كليهما أبعد من القيـــاس: فآلامه تفوق الإدراك، ومحبته فائقة المعرفة.

ولا أعتقد أن هناك صرخة – في الزمان أو في الأبدية – تحوي من الألـــم والفزع ما تحويه صرخة المسيح هنا «إلهي، إلهي لماذا تركتنـــي؟». فـــهيا الآن

بروح الخشوع، وبنعال مخلوعة نميل، لننظر هذا المنظر العظيم. فإنه عندما يستحيل على عقولنا أن تفهم أو تستوعب، تستطيع قلوبنا أن تسجد بتعجب وخشوع، ولو لم تدرك الكل. ولهذا، فليس بعجيب أننا في السماء، مع جميع المفديين، سنرنم له قائلين «مستحق أنت... لأنك ذُبِحتَ واشتريتنا» (رؤ٥:٩).

لماذا تركه اللّٰه؟

لقد كانت صرخة المتألم الصابر وهو فوق الصليب هي «لماذا تركتني؟». ولنا نحن أيضاً أن نسأل: لماذا تركه الله؟ لقد تركه لأن هذه هي أجرة الخطية، فأجرة الخطية هي موت. وما هو الموت؟ هل هو الصمت المخيف الذي يسود المشهد الحزين بعد النَّفَس الأخير الذي يخرج من الجسد الساكن؟ هل هو تلك البرودة التي تزحف على الجسد بعد توقف دورته الدموية؟ هل هو ترك الأحباء والأقرباء لحبيبهم في ظلمة القبر وحيداً؟ إنه في الواقع أكثر من ذلك بكثير، وأكثر رعباً بما لا يُقَاس. وإنْ كان الموت الجسدي هو انفصال الروح عن الجسد، فإنَّ الموت الروحي هو انفصال روح الإنسان عن الله. إنه التَّرْكُ من قِبَل الله. إنه البعد عن الله مصدر الحياة، والانفصال عن الله مصدر النور.

لهذا كان ينبغي أن يُترَك المسيح من الله، لأنه فوق الصليب كان يدفع، نيابةً عنا، أجرة الخطية التي هي موت. ومَن أنا حتى يمكنني أن أتكلم عن هذا الأمر؟ ومَن أنا حتى أحاول أن أشرح أو أفسر هذه العبارة العجيبة؟

لقد تكلمنا عن العبارات الثلاث الأولى، وأمكننا أن نتأمل طويلاً في معانيها، ذلك لأن تلك العبارات تتمشى مع الكثير من أقوال المسيح السابقة في حياته. فإن كلمته الأولى «يا أبتاه، اغفر لهم» والتي فيها يطلب الغفران للأعداء، وإنْ كانت غريبةً تماماً على الطبيعة البشرية، لكنها ليست غريبةً عليه

هو الذي علَّمنا أن نحب أعداءنا. وإن كان المسيح، في كلمته الثانيـــة، أظـــهر اهتماماً بأمه، فهذا أيضاً ليس بمستغرَب على شخص هو كمال الكمال فـــي كـــل شيء، فكيف لا يُظهِر الكمال في دائرة العلاقات الطبيعيـــة أيضـــاً؟ وإن كـــان المسيح، في عبارته الثالثة من فوق الصليب، قد فتح باب الفردوس أمام خـــاطئ هالك، ولص مجدف، فهذا أيضاً ليس غريباً عليه، وهو قد جاء خصيصـــاً لكـــي يطلب ويخلِّص ما قد هلك. أما أن ينطق المسيح بهذه العبارة «إلـــهي، إلـــهي، لماذا تركتني؟» فهذا هو أعجوبة الأعاجيب حقا!

مَنْ فينا يعرف حقيقة الترك من الله ومعناه؟ لا أحد. فإننـــا بالكـــاد نعـــرف جزئياً ما نعانيه في لحظات اليأس القاتلة، عندما أحسسنا في لحظات أننـــا طُرِحنـــا من قدام وجهه، وفقدنا ابتسامة محبته في وجوهنا. لكن ذلك في الواقع ليـــس هـــو الترك من الله. لأن الله قال للمؤمن «لا أهملك، ولا أتركك» (عب١٣:٥،٦).

حتى الأشرار الذين أبعدوا الله عن تفكيرهم، لم يختبروا إلى هـــذه اللحظـــة المعنى الرهيب للترك من جانب الله. فلقد قال الرسول بولس للوثنيين في أثينـــا إن الله «عن كل واحد منا ليس بعيداً. لأننا به نحيا ونتحرك ونوجـــد»، إذ أنـــه «يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شـــيء» (أع١٧:٢٥،٢٧،٢٨). نعـــم، حتـــى الأشرار لم يسمعوا بعد القول الرهيب: «اذهبوا عني يا ملاعيـــن»، ولا القـــول الخطير «تباعدوا عنِّي يا جميع فاعلي الظلم» (مت٢٥:٤١؛ لو١٣:٢٧).

أمَّا الصديقون والأبرار فقد كان الرب ملجأهم في أزمنة الضيـــق. يقـــول داود النبي «ويكون الرب ملجأ للمنسحق، ملجأ في أزمنة الضيق، ويتكل عليك العـــارفون اسمك، لأنك لم تترك طالبيك يا رب» (مز٩:٩،١٠)، ويقول «أيضاً كنت فتى وقـــد شخت، ولم أرَ صدّيقاً تُخُلِّيَ عنه» (مز٣٧:٢٥)، وأيضاً «عليك اتَّكل آباؤنا، اتكلـــوا فنجيتَهم، إليك صرخوا فنجَوا، عليك اتكلوا فلم يخـــزَوا» (مـــز٢٢:٤،٥). وعندمـــا

كانت تضيق بهم الظروف، كان لسان حالهم «لماذا أنت منحنية يا نفســـى؟ ولمـــاذا تئنين فيَّ؟ ترجَّي الله، لأني بعد أحمده، خلاص وجهي وإلهي» (مز٤٢:١١).

وفي ساعة احتضارهم، كم كان الرب قريباً منهم! يقول داود «أيضـــاً إذا سرتُ في وادي ظل الموت، لا أخاف شراً، لأنك أنـــت معـــي» (مـــز٢٣:٤). فالرب لا يترك عبده المنتقل يعبر الوادي بمفرده، ولا يترك واحداً من قديســـيه في الأتون وحده، ولم يترك أحد الشهداء في ساعة احتضاره، بـــل كـــانوا فـــي ساعتهم الأخيرة بمعية الرب الشخصية، وروح المجد والله حلَّ عليـــهم، فنســـوا عذاباتهم، واستطاعوا أن يترنموا وهم مسلمون إلى الاستشهاد. قـــال الرســـول بولس «الجميع تركوني... لكن الرب وقف معي وقوانـــي» (٢تـــي٤:١٦،١٧). أما يسوع فلم يكن هذا حاله، فإن صرخته المُرَّة كانت خارجة من عمق أعمـــاق الحزن، ما سمعتها نفس حساسة إلا وسرَت بسببها رعدة في البدن.

لكن هذه الصرخة ليست فقـــط غريبـــة علـــى اختبـــارات كـــل القديســـين والأبرار، بل إنها في المقام الأول غريبة عن اختبـــاره هـــو، ذاك الـــذي منـــذ الأزل، وإلى الأبد، هو في كمال الشركة مع أبيه. اسمعه يقـــول، حســـبما ورد في أمثال ٨: ٢٧-٣٠ «لما ثبَّتَ السماوات كنت هناك أنا... لمَّا رســـم أســـسَ الأرض كنتُ عنده صانعاً، وكنت كل يوم لذته».

ثم تأمله في خلال الثلاث والثلاثين سنة التي عاشـــها هنـــا فـــوق الأرض. هل تركه الله طوال حياته؟ كلا، بل كان بحق «الساكن في ستر العلـــيِّ، وفـــي ظل القدير يبيت» (مز٩١:١). لقد تمتع هو - تبارك اسمه - بشـــركة مـــع الله غير مُعطَّلة. كان شعاره «جعلتُ الرب أمامي **في كل حين**، لأنه عـــن يمينـــي فلا أتزعزع». أما الآن فقد انسحب منه دفء الشـــركة والمحبـــة والحضـــرة الإلهية. لقد تُرِكَ بديلُنا المبارك في ساعات الظلمة فـــوق الصليـــب، فصـــرخ

«إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»

إن المسيح – في ساعات النور – عندما كان جسده القدوس نهباً للنظـــرات الشريرة الفاجرة من البشر تحمّل صامتاً؛ أما في ساعات الظلمة، عندمـــا حُـــرِمَ نظرة الله المُحب، تلك النظرة التي كانت فيها حياته، فقد صرخ قـــائلاً «إلـــهي، إلهي لماذا تركتني؟»

عمق أحزان المسيح

لم يصرخ المسيح: "يا إلهي لماذا تتكر لي أبناء بلدتي؟"، فلقد رفضـــه مـــن البداية أهل مدينته، الناصرة، بل حاولوا طرحه من فوق الجبـــل الـــذي كـــانت مدينتهم مبنية عليه. ولم يصرخ: "لماذا خذلني أصدقائي؟"، فالوحي يقـــول فـــي مناسبة أخرى إن كثيرين من تلاميذه رجعوا إلى الوراء ولـــم يعـــودوا يمشـــون معه. نعم، ليس تنكُّر أبناء بلدته، ولا خذلان أصدقائه له، هـــو ســـر صرختـــه الآن. بل إن الرب أيضاً لم يصرخ قائلاً: "لماذا أنكرني بطـــرس؟"، أو "لمـــاذا خانني يهوذا؟"، وكأنه يقول "أنا أفهم ترك أقربائي ومُواطِنـــيَّ لـــي، لأنـــه أيَّـــة شركة للنور مع الظلمة. وأفهم هروب التلاميذ وتركـــهم إيـــاي بمفـــردي، لأن الجسد ضعيف. لكن لماذا تركتني يا إلهي؟!"

كان الرب في اليوم السابق قد قال لتلاميذه «هوذا تأتي ساعة، وقد أتـــت الآن، تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته، وتتركونني وحدي»، ثم أضـــاف «وأنـــا لســـت وحدي، لأن الآب معي» (يو١٦: ٣٢). فعندما تركه التلاميذ كلهم وهربوا، كان لـــه في رفقة الآب كل العزاء. وعندما نضب ينبوع محبة الناس ووفائـــهم، راح ينـــهل الزلال العذب من محبة الله ونور وجهه. أما الآن وهو فـــوق الصليـــب، إذ أتـــت ساعات الظلمة الرهيبة، فقد انسحبت منه هذه التعزية. هناك لم يصبّ أحـــدٌ علـــى

جراحاته زيتاً وخمراً، هناك لم يسمع سيدنا كلمة عطف من السماء، هناك لـم يـأتِ ملاك يقويه وهو في حزنه الشديد. لقد توقفت خدمة الروح القدس لروحه الإنسانية، وانقطعت ابتسامة وجه الآب، ولهذا فإنه صرخ «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟»

استمع إلى تنهدات سيدنا كما عبَّر عنها روح النبوة في المزامير «يا رب، لمـاذا تقف بعيداً؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق» وأيضاً «أقـول لله... لمـاذا نسـيتني؟» وأيضاً «أنت إله حصني. لماذا رفضتني؟» وأيضاً «لماذا يا رب ترفـض نفسـي؟ لماذا تحجب وجهك عني؟ أنا مسكين» (مز ١٠:١؛ ٤٢:٩؛ ٤٣:٢؛ ٨٨:١٤).

إنه أمر محزن أن يُـتركَ شـخصٌ مـن أصدقائه، أو أن تُترك عروسٌ من زوجـها، وأن يُترك طفلٌ من والديه. أما أن يُـترك شـخصٌ من الله، فهذا هو العذاب الذي لا يشـفق. لقـد فضَّل موسى أن يموت هو والشعب على رمـال البرية، وأن تنهش جثثهم حيواناتُ الصحـراء، وتنقضُّ عليها كواسر السماء، على أن يُحرَمـوا من ضياء وجه الرب، فقال للرب «إن لم يسـر وجهك فلا تُصعدنا من هـهنا» (خـر٣٣:١٥). وهذا هو سر تلك الصرخة التي شـقَّت سـتار الظلام في الجلجثة. فعندما انسحب منـه دفء الشركة والمحبة والحضرة الإلهية، وعندما ترك بديلنا المبارك وحيداً، فإنه صرخ «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟».

أمام تهكمات البشر ظَلّ صامتاً، وعندما قاسى على أيديهم العذاب ألواناً لم يصرخ. أما الآن عند حمو غضب إله السماء الذي انصب عليه، وعندما تركه الله فإنه صرخ إلهي، إلهي لماذا تركتني؟

أمام تهكمات البشر ظَلّ صامتاً، وعندما قاسى على أيديهم العذاب ألواناً لـم يصرخ. أما الآن عند حمو غضب إله السماء الذي انصب عليه، وعندما تركـه الله فإنه صرخ «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟»

ألعلنا بعد ذلك نكون قد عرفنا عمق أحزان المسيح، وما احتمله في ساعات الظلمة الرهيبة؟ كلا البتة. فلقد وقفنا فقط على شاطئ آلامه، وأمامنا بحرٌ عَجَّاجٌ، بحرٌ أمواجه هائجة مزبد بالخزي، بحرٌ بعيد الأغوار وملئ بالأسرار.

رجلُ الرفقةِ كيف قد تُرِكتْ ... أنتَ يا مَنْ لذّةَ اللهِ صَنَعتَ
منشأُ الفرحةِ موضوعُ الرضا ... كيف ربي غضبَ اللهِ احتملتَ
لستُ أدري أيَّ حزنٍ كنتَ فيه ... أيَّ مُرٍّ ذُقتَ ربي بل شربتَ
كلَّ ما أدريه عنكَ صرخةً ... تكشفُ الأعماقَ عما فيه جُزتَ
يا إلهي يا إلهي لِمَ أنتَ ... قد حجبتَ الوجهَ عني وتركتَ
آه ربي كان ذا عني أنا ... كم سبيتَ القلبَ فيَّ وأذبتَ!

إننا من خلف حجاب تلك الظلمة نرى سيدنا كذبيحة الخطية، يتألم الآلام الكفارية. نراه يحمل حمل خطايانا الثقيل عندما وضع الرب عليه إثمَ جميعنا. نراه وقد جعله الله خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه. نراه يحتمل حُمُوَّ غضب الله الديان العادل ضد الإنسان الشرير. نراه يدفع هو أجرة الإثم الذي فعلته أيدينا، لظىً ولهيباً، وهو – بصفته الضامن – كان يدفع الغرم الذي كان علينا نحن أن ندفعه، يوم قال للعدل الإلهي "احسب خطاياهم عليَّ، أنا أوفي". ثم نجده بذلك يمحو بدمائه الصك الذي كان علينا، ويزيل بصليبه اللعنة التي كانت تهددنا، ويهدم بموته حائط السياج المتوسط الذي كان يفصل الإنسان عن أخيه، وبجسده يفتتح الطريق الحديث إلى محضر الله، وفي قبره يدفن خطايانا ويتركها هناك إلى الأبد. وفي كل ذلك نراه هناك منهمكاً في أعنف صراع، ويسجِّل أروع انتصار به مجَّد الله، وقهر الشيطان، وخلَّص الإنسان!

لكنني بعد كل هذا أجدني أفعل كما فعل أمير الوعاظ سبرجون عندما قال:

"لقد حاولت، قدر استطاعتي، أن أشرح هذه الصرخة العجيبة، لكنني الآن أشعر أني كنت مثل طفل صغير يحاول أن يشرح شيئاً عويصاً. ولهذا فإني أكتفي بأن أقول إن الله في ثلاث ساعات الظلمة ترك الرب يسوع على الصليب".

وأما إذا سألتني لماذا؟ فإن التفسير البسيط والمباشر هو أن المسيح أخذ مكاننا في الجلجثة. إلى حيث أوصلت الخطيةُ الإنسانَ، إلى ذات المكان أوصلت النعمةُ المخلِّصَ. لقد دخل المسيح الظلمة ليكون لي أنا النور، وشرب كأس الأهوال لأشرب أنا كأس الهنا، وتُرِك هو ليمكنه أن يقول لي في محبة عجيبة «لا أهملك، ولا أتركك»، وليكون لي الشركة الأبدية معه في بيت الآب.

وعلى طريقِ الجلجثةْ ظهرتْ جموعُ الزاحفينْ
والربُّ يحملُ حِملَهُ ويَرى الشبابَ السلخرينْ
الحِملُ ليسَ بحِملِه الحِملُ حِملُ المجرمينْ
والمريماتُ هَمَسنَ في نَغمٍ يقطّعهُ الأنينْ:

لِم كان ذاك؟

كان ذاكَ لأنّ ذاكَ هو الطريقُ وليس غيرَهْ
هو الطريقُ إلى خلاصِ الخاطي من ويلات شرِهْ
يشربْ هوَ كأسَ العذاب نيابةً، يشربها مُرّهْ
ويذوقُ عنّا الموتَ، بل ويقاسي جَمرَهْ

تأملات في صرخة المسيح

إن لهذه الكلمات التي نطق بها المسيح بعد ساعات الظلام (كلمات الهجر)

وضع فريد وقيمة خاصة.

فأولاً: هي بين عبارات المسيح السبع من فـــوق الصليـــب تشـــغل مكـــان الوسط، يسبقها ثلاث عبارات ويليها ثلاث عبارات.

ثانياً: إنها العبارة الوحيدة من بين عبارات المسيح التي وردت فـــي أكـــثر من إنجيل واحد (متى ومرقس*).

ثالثاً: إنها اقتُبِسَت بنصّها من أهم المزامير المسيانية (مزمور ٢٢).

رابعاً: أن كِلا البشيرين متى ومرقس، نقل إلينـــا هـــذه العبـــارة للمســـيح باللغـــة الأرامية، وبذات الألفاظ التي خرجت من فم القدوس المتـــألم، قبـــل أن يكتبـــا معناهـــا باليونانية، وكأنهما خشيا أن يحجب نقلها لليونانيـــة شـــيئاً مـــن مدلولـــها. أو كأنـــهما استخسرا ألا تُخلَّد ذات العبارة التي صرخ بها الرب من عمق أعماق الألم نيابةً عنا.

ونريد الآن، بعد أن تأملنا في كلمات الصرخـــة، أن نتـــأمل فـــي مدلـــول الصرخة ذاتها.

أولاً: كمالات الفادي

١- **لغة الكتاب:** نلاحظ أولاً أن تلـــك الصرخـــة إنمـــا هـــي اقتبـــاس مـــن المزمور ٢٢ الذي يُعتَبَر لسان حال المسيح وهو فـــوق الصليـــب. وقـــد كتب هذا المزمور داود النبي بوحي من الروح القدس قبل الصليب بنحـــو ألف عام. وعليه، فإن هذه الصرخة ترينا أن الصلاة وكلمة الله كلتيـــهما كانتا غاليتين وثمينتين جداً في نظر الرب، حتى وهو في أحرج موقـــف، وأصعب حالة. فلقد كانت لغته هي لغة الكتاب المقدس. وكان اتجاهـــه

---

* وردت صرخة الترك من الله في إنجيل متى الذي يحدثنا عن المســـيح كذبيحـــة الإثـــم، وإنجيـــل مرقس الذي يحدثنا عن المسيح كذبيحة الخطية. فعندما صار المسيح فوق الصليب ذبيحة خطيـــة وذبيحة إثم تركه الله الذي لا يطيق الخطية والإثم!

الطبيعي هو إلى الله، مثل إبرة البوصلة في اتجاهها دائماً إلى الشمال.

٢- **الثقة العظيمة في الله:** لكن هذه الصرخة تُرينا شيئاً آخر: فإن كانت صلاته في بستان جثسيماني أظهرت عمق طاعته لأبيه وخضوعه له، عندما قال له «ليكن، لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت» (مر١٤: ٣٦)، فإن صرخته هنا في الجلجثة تبيِّن سمو إيمانه. من ثَمَّ أتت الصرخة التي تصاعدت من نفسه المتألمة «إيلي، إيلي، لَمَا شبقتني. أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»، فهو لم يصرخ من الله، بل صرخ إلى الله. فهو متروك منه، ويصرخ إليه. أليس هذا سمو الإيمان بعينه؟ فنحن قد نتكل على الله عندما تكون الشمس مشرقة، أما المسيح، فمن عمق ظلمة لم يعرف التاريخ البشري نظيراً لها، يقول: «إلهي». إنه لا يخاطبه قائلاً "يا الله"، بل «إلهي» ويكرر ذلك مرتين* «إلهي، إلهي». لقد ثبت بحق أنه هو «رئيس الإيمان، ومُكَمِّله» (عب١٢: ٢).

> إن كانت صلاته في جثسيماني أظهرت عمق طاعته لأبيه، فإن صرخته هنا في الجلجثة تبيِّن سمو إيمانه. إنه لم يصرخ من الله، بل صرخ إلى الله. فهو متروك منه، ويصرخ إليه. أليس هذا سمو الإيمان بعينه؟

٣- **الاتكال الكليّ على الله:** واللفظ الذي خرج من فم سيدنا هو «إيلي، إيلي». وكلمة "إيل"، وهي أحد أسماء الجلالة في اللغة العبرانية، تعني

---

* يعرف البعض أن الله نادى سبعة أشخاص بأسمائهم مكررة مرتين، وهم: إبراهيم، يعقوب، موسى، صموئيل، مرثا، سمعان، شاول. وكان تكرار الاسم يدل على اهتمام الله العميق والخاص بهؤلاء الأشخاص. أما هنا فنجد الإنسان الكامل هو الذي ينادي الله باسمه مرتين، وكان هذا التكرار يدل على تكريس عميق لله وحب كامل له!

"القويّ". فكأن المسيح ينادى الله قائلاً: "يا قوتي، وسند إنسانيتي، الـــذي ليس لي سند سواك ولا قوة غيرك؛ لماذا تركتني؟"

لقد كان المسيح من بداية إنسانيته، من بطن أمه، متكلاً على الله. وهـــذا ما يخبرنا به نفس المزمور ٢٢ الذي يبدأ بصرخة الترك من جـــانب الله «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» إذ يستمر الرب مخاطباً إلهه فيقول «لأنـــك أنت جذبتني من البطن، جعلتني مطمئناً على ثديي أمي. عليك أُلقيتُ مـــن الرَّحم. من بطن أمي أنت إلهي». فهو متكِل على الله من بطـــن أمـــه. لكن ها هم أعداؤه يستهزئون به لهذا السبب نفسه: إذ يقول «كـــل الذيـــن يرونني يستهزئون بي. يفغرون الشفاه، وينغضون الرأس قائلين: اتكـــل على الرب فلينجِّهِ». لكنه، رغم ذلك، ما زال متمسكاً بإلهه، فيقـــول لـــه «لا تتباعد عني لأن الضيق قريب. لأنه لا معين»، وأيضاً «أما أنـــت... فلا تبعد. ياقوتي أسرع إلى نصرتي».

ثانياً: البدلية والفداء

نلاحظ أن الرب اعتاد في حياته أن يصلي إلى الله مخاطباً إياه «يا أبتـــاه»، أو «أيها الآب». أما هنا، في صرخة المسيح في ساعات الظلمة، فلا يقول لـــه «يا أبتاه»، بل ها نحن نسمعه لأول مرة يقول: «إلـــهي، إلـــهي*». ذلـــك لأن المسيح، في هذا الموقف، كان ممثلاً للإنسان أمام الله، ديَّان كل الأرض. هنـــا، وفي هذا السؤال، نفهم أحد معاني الكفارة.

---

* لم يصرخ المسيح من فوق الصليب إلى "يهوه"، بل إلى الله "إيلوهيم"، وذلك لسببين:

١- اسم "يهوه" هو اسم علاقة الله بشعبه إسرائيل. والمسيح فوق الصليب لم يكـــن يتـــألم لأجـــل خطايا إسرائيل فحسب، بل لأجل كل الخطايا التي ارتُكبت من بداية التاريخ.

٢- لأن هذه الصرخة تصور لنا البعد الذي وضعت الخطية فيه الإنسان، وليس العلاقة الخاصـــة والقرب الذي يُستفاد من اسم "يهوه".

يقول المسيح «لماذا»، وعندما يسأل المسيح «لماذا»، ولا يتلقى على سؤاله هذا جواباً، فلا أتوقع أني أنا المحدود يكون لديَّ الجواب. ولكننا مع ذلك، إذا سرنا قليلاً في المزمور الذي يُفتَتَح بصرخة المسيح هذه، فإننا نجد في العدد الثالث منه ما يمكننا أن نعتبره الرد على هذا السؤال الذي بلا جواب، إذ يقول «وأنت القدوس». فالله لم يترك المسيح ظُلماً. حاشا! بل تركه لأنه القدوس. أتسأل: ولماذا الله – باعتباره القدوس – يترك المسيح فوق الصليب؟ الإجابة: ليس لأن في المسيح أي شيء لا يتوافق مع الله وقداسته. كلا البتة، بل لأنه – تبارك اسمه – قَبِلَ أن يُمثِّل الخطاة، وكانت خطايانا موضوعة عليه في ذلك الوقت.

يستطرد المسيح فيقول «وأنت القدوس الجالس بين تسبيحات إسرائيل». فكيف لله القدوس أن يسكن وسط تسبيحات شعب خاطئ إلا على أساس الكفارة؟ أليس هذا أمراً عجيباً ومجيداً؟! لقد تُرِكَ ليكون لنا نحن علاقة وشركة مع الله. وفي المزمور عينه الذي يبدأ بصرخة التَّرك، نقرأ عن تسبيحات الشركة، فيقول المسيح «أُخبر باسمك إخوتي، وفي وسط الجماعة أسبِّحك». وتتكرر التسبيحات في هذا المزمور من جموع المفديين (ع٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦)، وكلها بُناءً على صرخة الفادي في أول المزمور. لذا كان ينبغي أن يذوق المسيح الموت بكل رعبه وهوله، يذوقه بنعمة الله، ليكون هو بنفسه الكفارة لشعبه.

ثالثاً: بشاعة الخطية

إن هذه الصرخة لا ترينا فقط برّ الله وقداسته اللذين لم يظهرا في كل التاريخ كما ظهرا في الجلجثة، بل ترينا أيضاً الخطية في بشاعتها. ولئن كان بوسعنا أن نرى بعضاً من نتائج الخطية المروعة إذا تأملنا في ويلات الحروب والأمراض، إذا نظرنا إلى المقابر وإلى السجون، وإذا ألقينا نظرة على

المُحطَّمين في الحانات والمراقص ودور الفجور ونوادي القمار؛ فإننا لن نـــرى الخطية في بشاعتها حقاً كما نراها في الجلجثة.

لقد ظهرت الخطية في بدايتها أنها تدمير للنفس، وفي تطورهـــا أنـــها تدمـــير للغير، وفي ذروتها تدمير لابن الله. ففي الجنة نرى بداية الخطيـــة وكيـــف دمَّـــر الإنسان نفسه، وخارج الجنة نرى الخطية في تطورها عندما قام قايين على هـــابيل وقتله. وفي ذروتها، نرى ارتجاج الأمم وتَفَكُّر الشعوب في الباطل، عندما قـــاموا معاً على الرب وعلى مسيحه. ولكن سواد الخطية القاتم نميزه، في لونه الحقيقـــي، في ساعات الظلمة الرهيبة، عندما تُرِكَ المسيح من الله فـــوق الصليـــب إذ جُعِـــلَ خطيةً لأجلنا.

آه، أيمكننا بعد ذلك أن نهادن الخطية التي سببت هذه الأحزان لسيدنا؟ أيـــها الشر، إن كل الذين يحبون الرب يبغضونـــك. أيتـــها الخطيـــة، إنـــك مســـتهجنة مستقبَحة عند كل القلوب التي ملك المسيح بالحب عليها، فلقد كنتِ ســـبب صلـــب سيدنا ومعبود قلوبنا، وبسببك صرخ صرخته المُرَّة «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟

رابعاً: مصير الخطاة الرهيب

إن ظُلمة الجلجثة تعبِّر عن ظلام المصير التعس لكل من يرفض ابـــن الله، وصرخة المسيح إذ تركه الله، تصوِّر رعب اليأس الأبدي الذي ينتظر كل مـــن يرفض خلاصاً عظيماً هذا مقداره أعدَّه المسيح في الجلجثة.

هناك نبوة في سفر عاموس تتحدث عن مصير تعـــس لتلـــك الأمـــة التـــي رفضت مسيّاها وقتلته، فيقول النبي «ويكون، في ذلك اليوم، يقول السيد الـــرب، أني أغيِّب الشمس في الظهر، وأقتم الأرض في يوم نور» (عا٨:٩). هذا هـــو ما سوف يحدث في يوم عتيد مع تلك الأمة التي لم تعـــرف زمـــان افتقادهـــا، واحتقرت مخلّصها وفاديها. فيا قارئي العزيز، هل أنت واحد من أولئك؟ هـــل

تعرف أنت زمان افتقادك؟ إن كل من يرفضون المسيح سوف يطويهم ظلام رهيب «الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان». إنَّ ما تحمَّله المسيح في ساعات الظلمة من نوعي الألم يتجاوب مع نوعي الآلام التي سيقاسيها الأشرار في بحيرة النار: وهي آلام إيجابية وأخرى سلبية. فهم سيحسون بالعذاب الواقع عليهم، وبالخسارة التي لحقت بهم إلى أبد الآبدين. وهكذا المسيح هنا: غضب الله واقع عليه، وابتسامة رضاه قد فارقته.

وعلى العكس من ذلك، فإنه بالنسبة للمؤمنين، عبرت الظلمة برعبها على بديلهم الكريم، والنور الحقيقي الآن يضيء. وسبيلنا كنور مشرق، يتزايد وينير إلى النهار الكامل. وفي هذا النهار الأبدي لن يغيب عنا البتة ضياء محياه الكريم (رؤ ٢٢: ٤).

لقد ظهرت الخطية في بدايتها أنها تدمير للنفس، وفي تطورها أنها تدمير للغير، وفي ذروتها تدمير لابن الله. ولكن سواد الخطية القاتم نميزه، في لونه الحقيقي، في ساعات الظلمة الرهيبة، عندما تُرِكَ المسيح من الله فوق الصليب إذ جُعِلَ خطيةً لأجلنا.

وأخيراً أقول: إن صرخة المسيح هذه تغلق الباب تماماً على الواهمين الذين يرجون خلاصاً عاما وشاملاً لجميع البشر، وبغضّ النظر عن موقفهم من حمل الله الكريم، تحت زعم أنه رحيم. نعم، الله رحيم جداً، ورحمته العجيبة ظهرت في أناته على البشر واحتماله لشرورهم كل هذه الآلاف من السنين. وهو ليس رحيما فقط، بل هو أيضا محبّ، ومحبته تبرهنت في إرسال ابنه الوحيد وبذله لأجلنا على الصليب، ولا برهان على محبة الله أقوى من صليب المسيح. لكن الصليب بعينه يعطينا برهاناً لعدالة الله وبره. فإنْ كان الله لم يتساهل مع الخطية عندما وُضعت على ابنه، فماذا سيفعل بك يا من تحتقر

محبته، وترفض ابنه الذي قدمه فدية لأجلك؟

حِسَاب، عِقَابَ فِي يَـــومٍ قَرِيـــبْ ... يا مَن دُستَ ابن الإلـــهِ الحبيـــبْ
يَا مَنْ قَد حَسِبتَ دمَـــاءَ المَسِـــيحْ ... لا تَكْفِي لا تَشفِي احتَقَرْتَ الذبيـــحْ
سَيَبقَى الصَّلِيـــبُ لِيَنْجُـــو البَعِيـــدْ ... وَأَنْتَ سَتَبْقَى فِـــي مَـــوْتٍ أَكِيـــدْ

فَمَاذَا سَيَفْعَلُ فِي يَـــوْمِ الحِسَـــابْ ... وكيفَ تراهُ فـــي يَـــومِ العِقَـــابْ؟
بِدُونِ الصَّلِيـــبِ الَّذِي تَدُوسُ الفِـــدَاءْ ... بِغَـــيْرِ المَسِـــيحِ، بِغَـــيْرِ الـــرِّدَاءْ
لَنْ يَرَى تَطْهِيـــرَ، وَيَعْلُـــوهُ البُكَـــاءْ ... وَلَيْـــسَ بِنَفْـــعٍ، وَلَيْـــسَ رَجَـــاءْ

كلمة الألم

بعد هذا رأى يسوع أنَّ كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال:

أَنَا عَطْشَانُ.

وكان إناء موضوعاً مملوءاً خلاً، فملأوا إسفنجة من الخلّ، ووضعوها على زوفا، وقدَّموها إلى فمه

(يو١٩:٢٨،٢٩)

هذه العبارة، بين عبارات المسيح السبع من فوق الصليب، هي الوحيدة التي تخُصّ سيدنا وحده دون سواه. فكلماته الثلاث الأولى في ساعات النور وجّه واحدة لأبيه، والثانية لأمه وليوحنا، والثالثة للّص التائب. ثم أتت العبارة الرابعة موجّهة إلى الله، والسادسة إلى كل من يعنيه الأمر، والسابعة والأخيرة إلى أبيه أيضاً. أما هذه فهي ليست موجّهة إلى أحد، ولا تتحدث عن أحد. إنها فقط تُعبّر عن إحساسه هو وحاجته هو. ثم إن هذه العبارة هي أصغر كل العبارات من فوق الصليب، فهي في اللغة اليونانية: اللغة الأصلية للعهد الجديد، وردت كلمة واحدة صغيرة، من مقطعين اثنين، ومن أربعة حروف. لكنها رغم هذا، شأنها شأن كل عبارات المسيح من فوق الصليب، عبارة عميقة وعظيمة.

وسنتأمل هذه الكلمة في خمس ثانيات:

حقيقة ناسوت المسيح، وبرهان لاهوته

أما أولاً، فإن هذا النطق يعبّر بوضوح عن حقيقة ناسوتية المسيح. فعندما صرخ يسوع قائلاً «أنا عطشان»، كانت تلك الصرخة دلالة على أن المسيح إنسان بكل معنى الكلمة، فحاشا لله أن يعطش، لكنه في غِنى نعمته، ولإتمام عمل الفداء قَبِلَ، وهو الله: الكلمة الأزليّ، أن يصير إنساناً. إنه لم يَصِرْ مجرد

روح أو خيال، بل كان إنساناً بكل معنى الكلمة. ولهذا فقد تكـــوَّن لـــه جســدٌ، بالروح القدس، في بطن المُطوَّبة العذراء مريم، ثم أخذ هذا الجسد ينمو بوصفـــه الإنسان الكامل الذي شاركنا البشرية في كل شيء، عدا الخطية: فجاع، وتعـــب، ونام، وبكى، وصلَّى (مت٤:٢؛ يو٤:٦؛ مر٤:٣٨؛ يو١١:٣٥؛ مر١:٣٥)، وهـــا نحن نراه فوق الصليب، وقد يبس لسانه مـــن العطـــش يصـــرخ قـــائلاً «أنـــا عطشان»! هذا كله فعله الإنسان يسوع المسيح.

لكن صرخة المسيح تلك بعينها هي في الوقت نفسه البرهان على لاهوتـــه، وهذا ما نفهمه من القرينة التي وردت فيها هذه العبارة، إذ يقول البشير: «بعـــد هذا، رأى يسوع أن كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قـــال: أنـــا عطشـــان». هنا نجد أمرين يؤكدان لاهوت المسيح: فأولاً هو رأى أن كل شيء قـــد كمـــل. وهذا معناه أنه – تبارك اسمه – كان يميّز ويدرك كل الأمور التي جرت والتـــي تجري. فالوحي لا يقول إن أحداً أخبره، بل يقول إنـــه رأى. وهـــي الكلمـــة اليونانية عينها التي تُرجِمَت في هذا الإنجيل عدة مرات «عَلِـــمَ»*. مـــا الـــذي رآه، أو بالحري عَلِمَه، ذلك المصلوب؟ لقد رأى كل شيء، ومِن ثَـــمَّ علـــم أن كل شيء قد كمل. أيمكن أن يكون إنساناً عادياً ويحيـــط علمـــاً بكـــل شـــيء؟ أيمكن وهو في مثل تلك الآلام الرهيبة – لو كان هو مجرد إنســـان – أن يُقـــال عنه إنه علم أن كل شيء قد كمل؟

لكن ليس فقط رأى وعلم أن كل شيء قد كمل، باستثناء أمرٍ واحدٍ صغـــير، بل إنه أيضا نطق بكلمة واحدة قصيرة، جعلت هذا الشيء الوحيد الذي لم يكـــن قد تم بعد يتم في الحال.

نعم، لقد مرّ بفكره وذهنه علي كل الأحداث الرهيبة التي تمت معه في تلـــك

* انظر مثلاً لوقا ٢٤: ١٨؛ ٤٤؛ ٢١؛ ٢٢؛ ١٧؛ ٢١؛ ٢٢؛ ٢٣؛ ٢٤؛ ٢٥؛ ٢٦؛ ٢٧؛ ٢٨؛ ٢٩؛ ٣٠؛ ٣١؛ ٣٢؛ ٣٣؛ ٣٤؛ ٣٥؛ ٣٦؛ ٣٧؛ ٣٨؛ ٣٩؛ ٤٠؛ ٤١؛ ٤٢؛ ٤٣؛ ٤٤؛ ٤٥؛ ٤٦؛ ٤٧؛ ٤٨؛ ٤٩؛ ٥٠؛ ٥١؛ ٥٢؛ ٥٣؛ ٥٤؛ ٥٥؛ ٥٦؛ ٥٧؛ ٥٨؛ ٥٩؛ ٦٠؛ ٦١؛ ٦٢؛ ٦٣؛ ٦٤؛ ٦٥؛ ٦٦؛ ٦٧؛ ٦٨؛ ٦٩؛ ٧٠؛ ٧١؛ ٧٢؛ ٧٣؛ ٧٤؛ ٧٥؛ ٧٦؛ ٧٧؛ ٧٨؛ ٧٩؛ ٨٠؛ ٨١؛ ٨٢؛ ٨٣؛ ٨٤؛ ٨٥؛ ٨٦؛ ٨٧؛ ٨٨؛ ٨٩؛ ٩٠؛ ٩١؛ ٩٢؛ ٩٣؛ ٩٤؛ ٩٥؛ ٩٦؛ ٩٧؛ ٩٨؛ ٩٩؛ ١٠٠؛ ١٠١؛ ١٠٢؛ ١٠٣؛ ١٠٤؛ ١٠٥؛ ١٠٦؛ ١٠٧؛ ١٠٨؛ ١٠٩؛ ١١٠؛ ١١١؛ ١١٢؛ ١١٣؛ ١١٤؛ ١١٥؛ ١١٦؛ ١١٧؛ ١١٨؛ ١١٩؛ ١٢٠؛ ١٢١؛ ١٢٢؛ ١٢٣؛ ١٢٤؛ ١٢٥؛ ١٢٦؛ ١٢٧؛ ١٢٨؛ ١٢٩؛ ١٣٠؛ ١٣١؛ ١٣٢؛ ١٣٣؛ ١٣٤؛ ١٣٥؛ ١٣٦؛ ١٣٧؛ ١٣٨؛ ١٣٩؛ ١٤٠؛ ١٤١؛ ١٤٢؛ ١٤٣؛ ١٤٤؛ ١٤٥؛ ١٤٦؛ ١٤٧؛ ١٤٨؛ ١٤٩؛ ١٥٠؛ ١٥١؛ ١٥٢؛ ١٥٣؛ ١٥٤؛ ١٥٥؛ ١٥٦؛ ١٥٧؛ ١٥٨؛ ١٥٩؛ ١٦٠؛ ١٦١؛ ١٦٢؛ ١٦٣؛ ١٦٤؛ ١٦٥؛ ١٦٦؛ ١٦٧؛ ١٦٨؛ ١٦٩؛ ١٧٠؛ ١٧١؛ ١٧٢؛ ١٧٣؛ ١٧٤؛ ١٧٥؛ ١٧٦؛ ١٧٧؛ ١٧٨؛ ١٧٩؛ ١٨٠؛ ١٨١؛ ١٨٢؛ ١٨٣؛ ١٨٤؛ ١٨٥؛ ١٨٦؛ ١٨٧؛ ١٨٨؛ ١٨٩؛ ١٩٠؛ ١٩١؛ ١٩٢؛ ١٩٣؛ ١٩٤؛ ١٩٥؛ ١٩٦؛ ١٩٧؛ ١٩٨؛ ١٩٩؛ ٢٠٠؛ ٢٠١؛ ٢٠٢؛ ٢٠٣؛ ٢٠٤؛ ٢٠٥؛ ٢٠٦؛ ٢٠٧؛ ٢٠٨؛ ٢٠٩؛ ٢١٠؛ ٢١١؛ ٢١٢؛ ٢١٣؛ ٢١٤؛ ٢١٥؛ ٢١٦؛ ٢١٧؛ ٢١٨؛ ٢١٩؛ ٢٢٠؛ ٢٢١؛ ٢٢٢؛ ٢٢٣؛ ٢٢٤؛ ٢٢٥؛ ٢٢٦؛ ٢٢٧؛ ٢٢٨؛ ٢٢٩؛ ٢٣٠؛ ٢٣١؛ ٢٣٢؛ ٢٣٣؛ ٢٣٤؛ ٢٣٥؛ ٢٣٦؛ ٢٣٧؛ ٢٣٨؛ ٢٣٩؛ ٢٤٠؛ ٢٤١؛ ٢٤٢؛ ٢٤٣؛ ٢٤٤؛ ٢٤٥؛ ٢٤٦؛ ٢٤٧؛ ٢٤٨؛ ٢٤٩؛ ٢٥٠؛ ٢٥١؛ ٢٥٢؛ ٢٥٣؛ ٢٥٤؛ ٢٥٥؛ ٢٥٦؛ ٢٥٧؛ ٢٥٨؛ ٢٥٩؛ ٢٦٠؛ ٢٦١؛ ٢٦٢؛ ٢٦٣؛ ٢٦٤؛ ٢٦٥؛ ٢٦٦؛ ٢٦٧؛ ٢٦٨؛ ٢٦٩؛ ٢٧٠؛ ٢٧١؛ ٢٧٢؛ ٢٧٣؛ ٢٧٤؛ ٢٧٥؛ ٢٧٦؛ ٢٧٧؛ ٢٧٨؛ ٢٧٩؛ ٢٨٠؛ ٢٨١؛ ٢٨٢؛ ٢٨٣؛ ٢٨٤؛ ٢٨٥؛ ٢٨٦؛ ٢٨٧؛ ٢٨٨؛ ٢٨٩؛ ٢٩٠؛ ٢٩١؛ ٢٩٢؛ ٢٩٣؛ ٢٩٤؛ ٢٩٥؛ ٢٩٦؛ ٢٩٧؛ ٢٩٨؛ ٢٩٩؛ ٣٠٠؛ ٣٠١؛ ٣٠٢؛ ٣٠٣؛ ٣٠٤؛ ٣٠٥؛ ٣٠٦؛ ٣٠٧؛ ٣٠٨؛ ٣٠٩؛ ٣١٠؛ ٣١١؛ ٣١٢؛ ٣١٣؛ ٣١٤؛ ٣١٥؛ ٣١٦؛ ٣١٧؛ ٣١٨؛ ٣١٩؛ ٣٢٠؛ ٣٢١؛ ٣٢٢؛ ٣٢٣؛ ٣٢٤؛ ٣٢٥؛ ٣٢٦؛ ٣٢٧؛ ٣٢٨؛ ٣٢٩؛ ٣٣٠؛ ٣٣١؛ ٣٣٢؛ ٣٣٣؛ ٣٣٤؛ ٣٣٥؛ ٣٣٦؛ ٣٣٧؛ ٣٣٨؛ ٣٣٩؛ ٣٤٠؛ ٣٤١؛ ٣٤٢؛ ٣٤٣؛ ٣٤٤؛ ٣٤٥؛ ٣٤٦؛ ٣٤٧؛ ٣٤٨؛ ٣٤٩؛ ٣٥٠؛ ٣٥١؛ ٣٥٢؛ ٣٥٣؛ ٣٥٤؛ ٣٥٥؛ ٣٥٦؛ ٣٥٧؛ ٣٥٨؛ ٣٥٩؛ ٣٦٠؛ ٣٦١؛ ٣٦٢؛ ٣٦٣؛ ٣٦٤؛ ٣٦٥؛ ٣٦٦؛ ٣٦٧؛ ٣٦٨؛ ٣٦٩؛ ٣٧٠؛ ٣٧١؛ ٣٧٢؛ ٣٧٣؛ ٣٧٤؛ ٣٧٥؛ ٣٧٦؛ ٣٧٧؛ ٣٧٨؛ ٣٧٩؛ ٣٨٠؛ ٣٨١؛ ٣٨٢؛ ٣٨٣؛ ٣٨٤؛ ٣٨٥؛ ٣٨٦؛ ٣٨٧؛ ٣٨٨؛ ٣٨٩؛ ٣٩٠؛ ٣٩١؛ ٣٩٢؛ ٣٩٣؛ ٣٩٤؛ ٣٩٥؛ ٣٩٦؛ ٣٩٧؛ ٣٩٨؛ ٣٩٩؛ ٤٠٠؛ ٤٠١؛ ٤٠٢؛ ٤٠٣؛ ٤٠٤؛ ٤٠٥؛ ٤٠٦؛ ٤٠٧؛ ٤٠٨؛ ٤٠٩؛ ٤١٠؛ ٤١١؛ ٤١٢؛ ٤١٣؛ ٤١٤؛ ٤١٥؛ ٤١٦؛ ٤١٧؛ ٤١٨؛ ٤١٩؛ ٤٢٠؛ ٤٢١؛ ٤٢٢؛ ٤٢٣؛ ٤٢٤؛ ٤٢٥؛ ٤٢٦؛ ٤٢٧؛ ٤٢٨؛ ٤٢٩؛ ٤٣٠؛ ٤٣١؛ ٤٣٢؛ ٤٣٣؛ ٤٣٤؛ ٤٣٥؛ ٤٣٦؛ ٤٣٧؛ ٤٣٨؛ ٤٣٩؛ ٤٤٠؛ ٤٤١؛ ٤٤٢؛ ٤٤٣؛ ٤٤٤؛ ٤٤٥؛ ٤٤٦؛ ٤٤٧؛ ٤٤٨؛ ٤٤٩؛ ٤٥٠؛ ٤٥١؛ ٤٥٢؛ ٤٥٣؛ ٤٥٤؛ ٤٥٥؛ ٤٥٦؛ ٤٥٧؛ ٤٥٨؛ ٤٥٩؛ ٤٦٠؛ ٤٦١؛ ٤٦٢؛ ٤٦٣؛ ٤٦٤؛ ٤٦٥؛ ٤٦٦؛ ٤٦٧؛ ٤٦٨؛ ٤٦٩؛ ٤٧٠؛ ٤٧١؛ ٤٧٢؛ ٤٧٣؛ ٤٧٤؛ ٤٧٥؛ ٤٧٦؛ ٤٧٧؛ ٤٧٨؛ ٤٧٩؛ ٤٨٠؛ ٤٨١؛ ٤٨٢؛ ٤٨٣؛ ٤٨٤؛ ٤٨٥؛ ٤٨٦؛ ٤٨٧؛ ٤٨٨؛ ٤٨٩؛ ٤٩٠؛ ٤٩١؛ ٤٩٢؛ ٤٩٣؛ ٤٩٤؛ ٤٩٥؛ ٤٩٦؛ ٤٩٧؛ ٤٩٨؛ ٤٩٩؛ ٥٠٠؛ ٥٠١؛ ٥٠٢؛ ٥٠٣؛ ٥٠٤؛ ٥٠٥؛ ٥٠٦؛ ٥٠٧؛ ٥٠٨؛ ٥٠٩؛ ٥١٠؛ ٥١١؛ ٥١٢؛ ٥١٣؛ ٥١٤؛ ٥١٥؛ ٥١٦؛ ٥١٧؛ ٥١٨؛ ٥١٩؛ ٥٢٠؛ ٥٢١؛ ٥٢٢؛ ٥٢٣؛ ٥٢٤؛ ٥٢٥؛ ٥٢٦؛ ٥٢٧؛ ٥٢٨؛ ٥٢٩؛ ٥٣٠؛ ٥٣١؛ ٥٣٢؛ ٥٣٣؛ ٥٣٤؛ ٥٣٥؛ ٥٣٦؛ ٥٣٧؛ ٥٣٨؛ ٥٣٩؛ ٥٤٠؛ ٥٤١؛ ٥٤٢؛ ٥٤٣؛ ٥٤٤؛ ٥٤٥؛ ٥٤٦؛ ٥٤٧؛ ٥٤٨؛ ٥٤٩؛ ٥٥٠؛ ٥٥١؛ ٥٥٢؛ ٥٥٣؛ ٥٥٤؛ ٥٥٥؛ ٥٥٦؛ ٥٥٧؛ ٥٥٨؛ ٥٥٩؛ ٥٦٠؛ ٥٦١؛ ٥٦٢؛ ٥٦٣؛ ٥٦٤؛ ٥٦٥؛ ٥٦٦؛ ٥٦٧؛ ٥٦٨؛ ٥٦٩؛ ٥٧٠؛ ٥٧١؛ ٥٧٢؛ ٥٧٣؛ ٥٧٤؛ ٥٧٥؛ ٥٧٦؛ ٥٧٧؛ ٥٧٨؛ ٥٧٩؛ ٥٨٠؛ ٥٨١؛ ٥٨٢؛ ٥٨٣؛ ٥٨٤؛ ٥٨٥؛ ٥٨٦؛ ٥٨٧؛ ٥٨٨؛ ٥٨٩؛ ٥٩٠؛ ٥٩١؛ ٥٩٢؛ ٥٩٣؛ ٥٩٤؛ ٥٩٥؛ ٥٩٦؛ ٥٩٧؛ ٥٩٨؛ ٥٩٩؛ ٦٠٠؛ ٦٠١؛ ٦٠٢؛ ٦٠٣؛ ٦٠٤؛ ٦٠٥؛ ٦٠٦؛ ٦٠٧؛ ٦٠٨؛ ٦٠٩؛ ٦١٠؛ ٦١١؛ ٦١٢؛ ٦١٣؛ ٦١٤؛ ٦١٥؛ ٦١٦؛ ٦١٧؛ ٦١٨؛ ٦١٩؛ ٦٢٠؛ ٦٢١؛ ٦٢٢؛ ٦٢٣؛ ٦٢٤؛ ٦٢٥؛ ٦٢٦؛ ٦٢٧؛ ٦٢٨؛ ٦٢٩؛ ٦٣٠؛ ٦٣١؛ ٦٣٢؛ ٦٣٣؛ ٦٣٤؛ ٦٣٥؛ ٦٣٦؛ ٦٣٧؛ ٦٣٨؛ ٦٣٩؛ ٦٤٠؛ ٦٤١؛ ٦٤٢؛ ٦٤٣؛ ٦٤٤؛ ٦٤٥؛ ٦٤٦؛ ٦٤٧؛ ٦٤٨؛ ٦٤٩؛ ٦٥٠؛ ٦٥١؛ ٦٥٢؛ ٦٥٣؛ ٦٥٤؛ ٦٥٥؛ ٦٥٦؛ ٦٥٧؛ ٦٥٨؛ ٦٥٩؛ ٦٦٠؛ ٦٦١؛ ٦٦٢؛ ٦٦٣؛ ٦٦٤؛ ٦٦٥؛ ٦٦٦؛ ٦٦٧؛ ٦٦٨؛ ٦٦٩؛ ٦٧٠؛ ٦٧١؛ ٦٧٢؛ ٦٧٣؛ ٦٧٤؛ ٦٧٥؛ ٦٧٦؛ ٦٧٧؛ ٦٧٨؛ ٦٧٩؛ ٦٨٠؛ ٦٨١؛ ٦٨٢؛ ٦٨٣؛ ٦٨٤؛ ٦٨٥؛ ٦٨٦؛ ٦٨٧؛ ٦٨٨؛ ٦٨٩؛ ٦٩٠؛ ٦٩١؛ ٦٩٢؛ ٦٩٣؛ ٦٩٤؛ ٦٩٥؛ ٦٩٦؛ ٦٩٧؛ ٦٩٨؛ ٦٩٩؛ ٧٠٠؛ ٧٠١؛ ٧٠٢؛ ٧٠٣؛ ٧٠٤؛ ٧٠٥؛ ٧٠٦؛ ٧٠٧؛ ٧٠٨؛ ٧٠٩؛ ٧١٠؛ ٧١١؛ ٧١٢؛ ٧١٣؛ ٧١٤؛ ٧١٥؛ ٧١٦؛ ٧١٧؛ ٧١٨؛ ٧١٩؛ ٧٢٠؛ ٧٢١؛ ٧٢٢؛ ٧٢٣؛ ٧٢٤؛ ٧٢٥؛ ٧٢٦؛ ٧٢٧؛ ٧٢٨؛ ٧٢٩؛ ٧٣٠؛ ٧٣١؛ ٧٣٢؛ ٧٣٣؛ ٧٣٤؛ ٧٣٥؛ ٧٣٦؛ ٧٣٧؛ ٧٣٨؛ ٧٣٩؛ ٧٤٠؛ ٧٤١؛ ٧٤٢؛ ٧٤٣؛ ٧٤٤؛ ٧٤٥؛ ٧٤٦؛ ٧٤٧؛ ٧٤٨؛ ٧٤٩؛ ٧٥٠؛ ٧٥١؛ ٧٥٢؛ ٧٥٣؛ ٧٥٤؛ ٧٥٥؛ ٧٥٦؛ ٧٥٧؛ ٧٥٨؛ ٧٥٩؛ ٧٦٠؛ ٧٦١؛ ٧٦٢؛ ٧٦٣؛ ٧٦٤؛ ٧٦٥؛ ٧٦٦؛ ٧٦٧؛ ٧٦٨؛ ٧٦٩؛ ٧٧٠؛ ٧٧١؛ ٧٧٢؛ ٧٧٣؛ ٧٧٤؛ ٧٧٥؛ ٧٧٦؛ ٧٧٧؛ ٧٧٨؛ ٧٧٩؛ ٧٨٠؛ ٧٨١؛ ٧٨٢؛ ٧٨٣؛ ٧٨٤؛ ٧٨٥؛ ٧٨٦؛ ٧٨٧؛ ٧٨٨؛ ٧٨٩؛ ٧٩٠؛ ٧٩١؛ ٧٩٢؛ ٧٩٣؛ ٧٩٤؛ ٧٩٥؛ ٧٩٦؛ ٧٩٧؛ ٧٩٨؛ ٧٩٩؛ ٨٠٠؛ ٨٠١؛ ٨٠٢؛ ٨٠٣؛ ٨٠٤؛ ٨٠٥؛ ٨٠٦؛ ٨٠٧؛ ٨٠٨؛ ٨٠٩؛ ٨١٠؛ ٨١١؛ ٨١٢؛ ٨١٣؛ ٨١٤؛ ٨١٥؛ ٨١٦؛ ٨١٧؛ ٨١٨؛ ٨١٩؛ ٨٢٠؛ ٨٢١؛ ٨٢٢؛ ٨٢٣؛ ٨٢٤؛ ٨٢٥؛ ٨٢٦؛ ٨٢٧؛ ٨٢٨؛ ٨٢٩؛ ٨٣٠؛ ٨٣١؛ ٨٣٢؛ ٨٣٣؛ ٨٣٤؛ ٨٣٥؛ ٨٣٦؛ ٨٣٧؛ ٨٣٨؛ ٨٣٩؛ ٨٤٠؛ ٨٤١؛ ٨٤٢؛ ٨٤٣؛ ٨٤٤؛ ٨٤٥؛ ٨٤٦؛ ٨٤٧؛ ٨٤٨؛ ٨٤٩؛ ٨٥٠؛ ٨٥١؛ ٨٥٢؛ ٨٥٣؛ ٨٥٤؛ ٨٥٥؛ ٨٥٦؛ ٨٥٧؛ ٨٥٨؛ ٨٥٩؛ ٨٦٠؛ ٨٦١؛ ٨٦٢؛ ٨٦٣؛ ٨٦٤؛ ٨٦٥؛ ٨٦٦؛ ٨٦٧؛ ٨٦٨؛ ٨٦٩؛ ٨٧٠؛ ٨٧١؛ ٨٧٢؛ ٨٧٣؛ ٨٧٤؛ ٨٧٥؛ ٨٧٦؛ ٨٧٧؛ ٨٧٨؛ ٨٧٩؛ ٨٨٠؛ ٨٨١؛ ٨٨٢؛ ٨٨٣؛ ٨٨٤؛ ٨٨٥؛ ٨٨٦؛ ٨٨٧؛ ٨٨٨؛ ٨٨٩؛ ٨٩٠؛ ٨٩١؛ ٨٩٢؛ ٨٩٣؛ ٨٩٤؛ ٨٩٥؛ ٨٩٦؛ ٨٩٧؛ ٨٩٨؛ ٨٩٩؛ ٩٠٠؛ ٩٠١؛ ٩٠٢؛ ٩٠٣؛ ٩٠٤؛ ٩٠٥؛ ٩٠٦؛ ٩٠٧؛ ٩٠٨؛ ٩٠٩؛ ٩١٠؛ ٩١١؛ ٩١٢؛ ٩١٣؛ ٩١٤؛ ٩١٥؛ ٩١٦؛ ٩١٧؛ ٩١٨؛ ٩١٩؛ ٩٢٠؛ ٩٢١؛ ٩٢٢؛ ٩٢٣؛ ٩٢٤؛ ٩٢٥؛ ٩٢٦؛ ٩٢٧؛ ٩٢٨؛ ٩٢٩؛ ٩٣٠؛ ٩٣١؛ ٩٣٢؛ ٩٣٣؛ ٩٣٤؛ ٩٣٥؛ ٩٣٦؛ ٩٣٧؛ ٩٣٨؛ ٩٣٩؛ ٩٤٠؛ ٩٤١؛ ٩٤٢؛ ٩٤٣؛ ٩٤٤؛ ٩٤٥؛ ٩٤٦؛ ٩٤٧؛ ٩٤٨؛ ٩٤٩؛ ٩٥٠؛ ٩٥١؛ ٩٥٢؛ ٩٥٣؛ ٩٥٤؛ ٩٥٥؛ ٩٥٦؛ ٩٥٧؛ ٩٥٨؛ ٩٥٩؛ ٩٦٠؛ ٩٦١؛ ٩٦٢؛ ٩٦٣؛ ٩٦٤؛ ٩٦٥؛ ٩٦٦؛ ٩٦٧؛ ٩٦٨؛ ٩٦٩؛ ٩٧٠؛ ٩٧١؛ ٩٧٢؛ ٩٧٣؛ ٩٧٤؛ ٩٧٥؛ ٩٧٦؛ ٩٧٧؛ ٩٧٨؛ ٩٧٩؛ ٩٨٠؛ ٩٨١؛ ٩٨٢؛ ٩٨٣؛ ٩٨٤؛ ٩٨٥؛ ٩٨٦؛ ٩٨٧؛ ٩٨٨؛ ٩٨٩؛ ٩٩٠؛ ٩٩١؛ ٩٩٢؛ ٩٩٣؛ ٩٩٤؛ ٩٩٥؛ ٩٩٦؛ ٩٩٧؛ ٩٩٨؛ ٩٩٩؛ ١٠٠٠؛ ١٠٠١؛ ١٠٠٢؛ ١٠٠٣؛ ١٠٠٤؛ ١٠٠٥؛ ١٠٠٦؛ ١٠٠٧؛ ١٠٠٨؛ ١٠٠٩؛ ١٠١٠؛ ١٠١١؛ ١٠١٢؛ ١٠١٣؛ ١٠١٤؛ ١٠١٥؛ ١٠١٦؛ ١٠١٧؛ ١٠١٨؛ ١٠١٩؛ ١٠٢٠؛ ١٠٢١؛ ١٠٢٢؛ ١٠٢٣؛ ١٠٢٤؛ ١٠٢٥؛ ١٠٢٦؛ ١٠٢٧؛ ١٠٢٨؛ ١٠٢٩؛ ١٠٣٠؛ ١٠٣١؛ ١٠٣٢؛ ١٠٣٣؛ ١٠٣٤؛ ١٠٣٥؛ ١٠٣٦؛ ١٠٣٧؛ ١٠٣٨؛ ١٠٣٩؛ ١٠٤٠؛ ١٠٤١؛ ١٠٤٢؛ ١٠٤٣؛ ١٠٤٤؛ ١٠٤٥؛ ١٠٤٦؛ ١٠٤٧؛ ١٠٤٨؛ ١٠٤٩؛ ١٠٥٠؛ ١٠٥١؛ ١٠٥٢؛ ١٠٥٣؛ ١٠٥٤؛ ١٠٥٥؛ ١٠٥٦؛ ١٠٥٧؛ ١٠٥٨؛ ١٠٥٩؛ ١٠٦٠؛ ١٠٦١؛ ١٠٦٢؛ ١٠٦٣؛ ١٠٦٤؛ ١٠٦٥؛ ١٠٦٦؛ ١٠٦٧؛ ١٠٦٨؛ ١٠٦٩؛ ١٠٧٠؛ ١٠٧١؛ ١٠٧٢؛ ١٠٧٣؛ ١٠٧٤؛ ١٠٧٥؛ ١٠٧٦؛ ١٠٧٧؛ ١٠٧٨؛ ١٠٧٩؛ ١٠٨٠؛ ١٠٨١؛ ١٠٨٢؛ ١٠٨٣؛ ١٠٨٤؛ ١٠٨٥؛ ١٠٨٦؛ ١٠٨٧؛ ١٠٨٨؛ ١٠٨٩؛ ١٠٩٠؛ ١٠٩١؛ ١٠٩٢؛ ١٠٩٣؛ ١٠٩٤؛ ١٠٩٥؛ ١٠٩٦؛ ١٠٩٧؛ ١٠٩٨؛ ١٠٩٩؛ ١١٠٠؛ ١١٠١؛ ١١٠٢؛ ١١٠٣؛ ١١٠٤؛ ١١٠٥؛ ١١٠٦؛ ١١٠٧؛ ١١٠٨؛ ١١٠٩؛ ١١١٠؛ ١١١١؛ ١١١٢؛ ١١١٣؛ ١١١٤؛ ١١١٥؛ ١١١٦؛ ١١١٧؛ ١١١٨؛ ١١١٩؛ ١١٢٠؛ ١١٢١؛ ١١٢٢؛ ١١٢٣؛ ١١٢٤؛ ١١٢٥؛ ١١٢٦؛ ١١٢٧؛ ١١٢٨؛ ١١٢٩؛ ١١٣٠؛ ١١٣١؛ ١١٣٢؛ ١١٣٣؛ ١١٣٤؛ ١١٣٥؛ ١١٣٦؛ ١١٣٧؛ ١١٣٨؛ ١١٣٩؛ ١١٤٠؛ ١١٤١؛ ١١٤٢؛ ١١٤٣؛ ١١٤٤؛ ١١٤٥؛ ١١٤٦؛ ١١٤٧؛ ١١٤٨؛ ١١٤٩؛ ١١٥٠؛ ١١٥١؛ ١١٥٢؛ ١١٥٣؛ ١١٥٤؛ ١١٥٥؛ ١١٥٦؛ ١١٥٧؛ ١١٥٨؛ ١١٥٩؛ ١١٦٠؛ ١١٦١؛ ١١٦٢؛ ١١٦٣؛ ١١٦٤؛ ١١٦٥؛ ١١٦٦؛ ١١٦٧؛ ١١٦٨؛ ١١٦٩؛ ١١٧٠؛ ١١٧١؛ ١١٧٢؛ ١١٧٣؛ ١١٧٤؛ ١١٧٥؛ ١١٧٦؛ ١١٧٧؛ ١١٧٨؛ ١١٧٩؛ ١١٨٠؛ ١١٨١؛ ١١٨٢؛ ١١٨٣؛ ١١٨٤؛ ١١٨٥؛ ١١٨٦؛ ١١٨٧؛ ١١٨٨؛ ١١٨٩؛ ١١٩٠؛ ١١٩١؛ ١١٩٢؛ ١١٩٣؛ ١١٩٤؛ ١١٩٥؛ ١١٩٦؛ ١١٩٧؛ ١١٩٨؛ ١١٩٩؛ ١٢٠٠؛ ١٢٠١؛ ١٢٠٢؛ ١٢٠٣؛ ١٢٠٤؛ ١٢٠٥؛ ١٢٠٦؛ ١٢٠٧؛ ١٢٠٨؛ ١٢٠٩؛ ١٢١٠؛ ١٢١١؛ ١٢١٢؛ ١٢١٣؛ ١٢١٤؛ ١٢١٥؛ ١٢١٦؛ ١٢١٧؛ ١٢١٨؛ ١٢١٩؛ ١٢٢٠؛ ١٢٢١؛ ١٢٢٢؛ ١٢٢٣؛ ١٢٢٤؛ ١٢٢٥؛ ١٢٢٦؛ ١٢٢٧؛ ١٢٢٨؛ ١٢٢٩؛ ١٢٣٠؛ ١٢٣١؛ ١٢٣٢؛ ١٢٣٣؛ ١٢٣٤؛ ١٢٣٥؛ ١٢٣٦؛ ١٢٣٧؛ ١٢٣٨؛ ١٢٣٩؛ ١٢٤٠؛ ١٢٤١؛ ١٢٤٢؛ ١٢٤٣؛ ١٢٤٤؛ ١٢٤٥؛ ١٢٤٦؛ ١٢٤٧؛ ١٢٤٨؛ ١٢٤٩؛ ١٢٥٠؛ ١٢٥١؛ ١٢٥٢؛ ١٢٥٣؛ ١٢٥٤؛ ١٢٥٥؛ ١٢٥٦؛ ١٢٥٧؛ ١٢٥٨؛ ١٢٥٩؛ ١٢٦٠؛ ١٢٦١؛ ١٢٦٢؛ ١٢٦٣؛ ١٢٦٤؛ ١٢٦٥؛ ١٢٦٦؛ ١٢٦٧؛ ١٢٦٨؛ ١٢٦٩؛ ١٢٧٠؛ ١٢٧١؛ ١٢٧٢؛ ١٢٧٣؛ ١٢٧٤؛ ١٢٧٥؛ ١٢٧٦؛ ١٢٧٧؛ ١٢٧٨؛ ١٢٧٩؛ ١٢٨٠؛ ١٢٨١؛ ١٢٨٢؛ ١٢٨٣؛ ١٢٨٤؛ ١٢٨٥؛ ١٢٨٦؛ ١٢٨٧؛ ١٢٨٨؛ ١٢٨٩؛ ١٢٩٠؛ ١٢٩١؛ ١٢٩٢؛ ١٢٩٣؛ ١٢٩٤؛ ١٢٩٥؛ ١٢٩٦؛ ١٢٩٧؛ ١٢٩٨؛ ١٢٩٩؛ ١٣٠٠؛ ١٣٠١؛ ١٣٠٢؛ ١٣٠٣؛ ١٣٠٤؛ ١٣٠٥؛ ١٣٠٦؛ ١٣٠٧؛ ١٣٠٨؛ ١٣٠٩؛ ١٣١٠؛ ١٣١١؛ ١٣١٢؛ ١٣١٣؛ ١٣١٤؛ ١٣١٥؛ ١٣١٦؛ ١٣١٧؛ ١٣١٨؛ ١٣١٩؛ ١٣٢٠؛ ١٣٢١؛ ١٣٢٢؛ ١٣٢٣؛ ١٣٢٤؛ ١٣٢٥؛ ١٣٢٦؛ ١٣٢٧؛ ١٣٢٨؛ ١٣٢٩؛ ١٣٣٠؛ ١٣٣١؛ ١٣٣٢؛ ١٣٣٣؛ ١٣٣٤؛ ١٣٣٥؛ ١٣٣٦؛ ١٣٣٧؛ ١٣٣٨؛ ١٣٣٩؛ ١٣٤٠؛ ١٣٤١؛ ١٣٤٢؛ ١٣٤٣؛ ١٣٤٤؛ ١٣٤٥؛ ١٣٤٦؛ ١٣٤٧؛ ١٣٤٨؛ ١٣٤٩؛ ١٣٥٠؛ ١٣٥١؛ ١٣٥٢؛ ١٣٥٣؛ ١٣٥٤؛ ١٣٥٥؛ ١٣٥٦؛ ١٣٥٧؛ ١٣٥٨؛ ١٣٥٩؛ ١٣٦٠؛ ١٣٦١؛ ١٣٦٢؛ ١٣٦٣؛ ١٣٦٤؛ ١٣٦٥؛ ١٣٦٦؛ ١٣٦٧؛ ١٣٦٨؛ ١٣٦٩؛ ١٣٧٠؛ ١٣٧١؛ ١٣٧٢؛ ١٣٧٣؛ ١٣٧٤؛ ١٣٧٥؛ ١٣٧٦؛ ١٣٧٧؛ ١٣٧٨؛ ١٣٧٩؛ ١٣٨٠؛ ١٣٨١؛ ١٣٨٢؛ ١٣٨٣؛ ١٣٨٤؛ ١٣٨٥؛ ١٣٨٦؛ ١٣٨٧؛ ١٣٨٨؛ ١٣٨٩؛ ١٣٩٠؛ ١٣٩١؛ ١٣٩٢؛ ١٣٩٣؛ ١٣٩٤؛ ١٣٩٥؛ ١٣٩٦؛ ١٣٩٧؛ ١٣٩٨؛ ١٣٩٩؛ ١٤٠٠؛ ١٤٠١؛ ١٤٠٢؛ ١٤٠٣؛ ١٤٠٤؛ ١٤٠٥؛ ١٤٠٦؛ ١٤٠٧؛ ١٤٠٨؛ ١٤٠٩؛ ١٤١٠؛ ١٤١١؛ ١٤١٢؛ ١٤١٣؛ ١٤١٤؛ ١٤١٥؛ ١٤١٦؛ ١٤١٧؛ ١٤١٨؛ ١٤١٩؛ ١٤٢٠؛ ١٤٢١؛ ١٤٢٢؛ ١٤٢٣؛ ١٤٢٤؛ ١٤٢٥؛ ١٤٢٦؛ ١٤٢٧؛ ١٤٢٨؛ ١٤٢٩؛ ١٤٣٠؛ ١٤٣١؛ ١٤٣٢؛ ١٤٣٣؛ ١٤٣٤؛ ١٤٣٥؛ ١٤٣٦؛ ١٤٣٧؛ ١٤٣٨؛ ١٤٣٩؛ ١٤٤٠؛ ١٤٤١؛ ١٤٤٢؛ ١٤٤٣؛ ١٤٤٤؛ ١٤٤٥؛ ١٤٤٦؛ ١٤٤٧؛ ١٤٤٨؛ ١٤٤٩؛ ١٤٥٠؛ ١٤٥١؛ ١٤٥٢؛ ١٤٥٣؛ ١٤٥٤؛ ١٤٥٥؛ ١٤٥٦؛ ١٤٥٧؛ ١٤٥٨؛ ١٤٥٩؛ ١٤٦٠؛ ١٤٦١؛ ١٤٦٢؛ ١٤٦٣؛ ١٤٦٤؛ ١٤٦٥؛ ١٤٦٦؛ ١٤٦٧؛ ١٤٦٨؛ ١٤٦٩؛ ١٤٧٠؛ ١٤٧١؛ ١٤٧٢؛ ١٤٧٣؛ ١٤٧٤؛ ١٤٧٥؛ ١٤٧٦؛ ١٤٧٧؛ ١٤٧٨؛ ١٤٧٩؛ ١٤٨٠؛ ١٤٨١؛ ١٤٨٢؛ ١٤٨٣؛ ١٤٨٤؛ ١٤٨٥؛ ١٤٨٦؛ ١٤٨٧؛ ١٤٨٨؛ ١٤٨٩؛ ١٤٩٠؛ ١٤٩١؛ ١٤٩٢؛ ١٤٩٣؛ ١٤٩٤؛ ١٤٩٥؛ ١٤٩٦؛ ١٤٩٧؛ ١٤٩٨؛ ١٤٩٩؛ ١٥٠٠؛ ١٥٠١؛ ١٥٠٢؛ ١٥٠٣؛ ١٥٠٤؛ ١٥٠٥؛ ١٥٠٦؛ ١٥٠٧؛ ١٥٠٨؛ ١٥٠٩؛ ١٥١٠؛ ١٥١١؛ ١٥١٢؛ ١٥١٣؛ ١٥١٤؛ ١٥١٥؛ ١٥١٦؛ ١٥١٧؛ ١٥١٨؛ ١٥١٩؛ ١٥٢٠؛ ١٥٢١؛ ١

الساعات، فرأى أن النبوات العديدة التي سبقت عنه قد تممت تماماً: فمثلاً: خيانة أحد تلاميذه له كما ورد في المزمور ٩:٤١، وترك كل تلاميذه له كما يذكر المزمور ١١:٣١، وأيضاً زكريا ٧:١٣، واتهامه زوراً كما يشهد مزمور ١١:٣٥، وسوقه كشاة إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها كما يقرر إشعياء ٧:٥٣، واقتناع الحاكم ببراءته ومع ذلك أخصيَ مع أثمة كما أشار إشعياء ٩:٥٣، ١٢، وصدور الحكم بصلبه كما يقول المزمور ١٦:٢٢، واستهزاءهم به كما يوضح المزمور ٢٥:١٠٩، وتهكمهم عليه، بل وتحديهم له لينزل من على الصليب كما يرد في المزمور ٧:٢٢، ٨، ثم اقتسامهم ثيابه بينهم وإلقاءهم القرعة على لباسه (مز ١٨:٢٢) وشفاعته في المذنبين (إش ١٢:٥٣)، وتركه من الله (مز ١:٢٢). هذا كله وغيره قد تم فعلاً. لكن بقيت نبوة صغيرة لم تتمم بعد، هي تلك الواردة في المزمور ٢١:٦٩ «يجعلون في طعامي علقماً، وفي عطشي يسقونني خلاً». لهذا قال المسيح «أنا عطشان»، وفي الحال، كما يقول البشير «ملأوا اسفنجة من الخل، وقدموها إلى فمه». فتمّ كل ما عنه كُتب.

والواقع أن كون المسيح هو الله وهو الإنسان في آنٍ واحد معاً لهي حقيقة طالما حيّرت الكثيرين وأعثرتهم. لكن هذا الحق العظيم لم يعلنه الله لنا في كتابه العظيم ليكون مادة لجدل الإنسان، بل ليقبله بالإيمان، وليجاوبه معه بالسجود والعرفان. وتشهد كل شخص عرف هذا الحق المسيحي، الذي هو بإجماع كل المؤمنين، كما هو مكتوب «وبالإجماع، عظيم هو سر التقوى: الله ظهر في الجسد» (١ تي ٣: ١٦).

لقد صار المسيح إنساناً دون أن يعني هذا أن الله تحول إلى إنسان، ولا أن المسيح كان هنا على الأرض مجرد إنسان، لا أكثر ولا أقل. فلقد بقي في لاهوته كما هو من الأزل وإلى الأبد. لكنه اتخذ بالإضافة إلى ذلك جسداً

وشاركنا في البشرية، ما خلا الخطية. هذه الحقيقة: أعني اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص واحد، وردت حتى في أسفار التوراة التي بين أيدي اليهود، فيقول إشعياء النبي «لأنه يُولَد لنا ولد (مشيراً إلى ناسوت المسيح)، ونُعطَى ابناً (مشيراً إلى لاهوته)، ... ويُدعَى اسمه **عجيباً**، مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام» (إش٩: ٦). ويقول ميخا عن بيت لحم، القرية التي وُلِدَ فيها المسيح «أما أنت يا بيت لحم أفراتة، وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا، فمنك يخرج لي (هنا يشير إلى ناسوت المسيح) الذي... مخارجه منذ القديم، منذ أيام الأزل (إشارةً إلى لاهوته)» (مي٥: ٢).

ومع أن هذه الآيات وغيرها موجودة في أسفار التوراة التي ما زالت إلى اليوم بين أيدي اليهود، لكن حتى في أيام المسيح كان غير المؤمنين من اليهود متعثرين أمام هذه الحقيقة، مما جعل المسيح يسألهم ذات مرة: «ماذا تظنون في المسيح؟ ابن مَن هو؟ أجابوه: ابن داود. فقال لهم: فكيف يدعوه داود بالروح رباً قائلاً: قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك؟» فلم يستطيعوا الإجابة. أما المؤمن، الذي أنار الروح القدس ذهنه، فإنه يعرف أن المسيح بالجسد هو ابن داود، لكنه هو في الوقت نفسه رب داود. ويوضّح المسيح نفسه هذه الحقيقة في آخِر أصحاح في العهد الجديد، بل في آخر صفحة في الكتاب المقدس إذ يقول «أنا أصل وذرية داود» (رؤ٢٢: ١٦). إنه أصل داود لأنه خالقه، وذرية داود لأنه نسله، وقد وُلِدَ منه!

لكن هذا الشخص العظيم قَبِلَ أن يصير إنساناً ليخلصنا، إذ قَبِلَ أن يفدينا بذبيحة نفسه. وذاك الذي لا يكل ولا يعيا (إش٤٠: ٢٨) تعب مرة من السفر ليخلِّص إنسانة مسكينة أتعبتها الخطية. وذاك الجاعل السحاب مركبته (مز١٠٤: ٣) عبر من شطٍ إلى شطٍ في بحيرة طبرية وذهب إلى القبور

ليخلص إنساناً بائساً أذلَّتـــه الأرواح الشـــريرة. وذلك المُعلَّـق الأرض علـــى لا شيء (أي٢٦:٧) قَبلَ أن يُعلَّق فوق الصليب، ومن هناك يقول «أنا عطشـــان» ليَهَب كلَّ ظامئ الماء الحي.

عمق افتقار الفادي، وشدة آلامه

تأمَّل، عزيزي القارئ، في طريق ذلك الفادي المجيد في هذا العالم. ففـــي بدايته، لم يكن له مكان في المنزل، بـــل بـــدأ حياته في مذود للبهائم. وفي نهايته، لم يكـــن له حتى كوب ماء يروي غليله. يا لـــها مـــن صورة للاتضاع والفقر! فهو لم يكـــن فقـــط عطشاناً، بل أيضاً لا يقوى على إرواء غليلـــه، لأن قدميـــه مُسـمَّرتان، ويديـــه مســـمرتان. وعندما صرخ قائلاً «أنا عطشان» لم يقدمـــوا له الماء ليسقوه، بل قدموا له الخل!

> **يا له من افتقار! أإلى هذا الحد المريع من الفقر وصل المخلص المعبود وهو فـوق الصليـب؟! إنـه هنـا عطشـان. وذاك الـذي بـدأ خدمتـه الجهاريـة بـالجوع القارص ها هو هنا يختمها بالعطش الرهيب!**

يا له من افتقار! أإلى هذا الحد المريـــع من الفقر وصل المخلص المعبود وهو فـــوق الصليب؟! إننا نراه هنا بـــلا ثـوب يســتر جسده، بلا رفيق أو حبيب، بل وبلا أبطال من حوله يشـــقون المحلـــة ليســـتقوا الماء ليقدموه إلى سيدهم المهيب (قارن ٢صم٢٣:١٥،١٦). إنه هنا عطشـــان. وذاك الذي بدأ خدمته الجهارية بالجوع القارص (مت ٤:؛ لو٤:٢) ها هو هنـــا يختمها بالعطش الرهيب!

فهل تعرف، أيها العزيز، مَنْ هذا الذي وصل إلى مثل هذا الحد من الفقـــر؟

أتعرف مَن ذا الذي يقول هنا «أنا عطشان»؟ إنه مَن تُمَجِّده وتُسَبِّحه جماهير الملائكة في السماء. أفليس عجيباً أن موضوع شِيَع الآب ومسرته يقول «أنا عطشان»؟! والذي يتحدث الكتاب عن سموه وعظمته فيقول «ليس لعظمته استقصاء» (مز١٤٥:٣) يحتاج إلى رشفة ماء! وأن «الصانع السماوات والأرض» نراه فوق الصليب بحنك يابس!

يتحدث عنه الكتاب فيقول «المُفَجِّر عيوناً في الأودية، بين الجبال تجري، تسقي كل حيوان البر، تكسر الفراء ظمأها» (مز١٠٤:١٠،١١). وفي أيام موسى في القديم «شق صخوراً في البرية وسقاهم كأنه من لجج عظيمة. أخرج مجاري من صخرة وأجرى مياها كالأنهار» (مز٧٨:١٥،١٦) وذلك مُدّة أربعين سنة! بل إنه في أيام جسده قال للمرأة السامرية «لو كنتِ تعلمين عطية الله، ومَن هو الذي يقول لكِ أعطيني لأشرب، لطلبتِ أنتِ منه فأعطاك ماءً حياً» (يو٤:١٠). ووقف مرة في أورشليم وسط جمع حاشد لينادي قائلاً «إن عطش أحدٌ فليُقبِل إليَّ ويشرب» (يو٧:٣٧)، لكنه هنا يقول «أنا عطشان». وهكذا يخرج من العالم عطشان.

إنه الله العظيم الذي «كال بكفه المياه» (إش٤٠:١٢)، كما أنه هو الذي سواقيه ملآنة ماء، يروى أتلام الأرض وبالغيوث يحللها (مز٦٥:٩،١٠)، بل إنه هو نفسه «ينبوع المياه الحية» (إر٢:١٣؛ ١٧:١٣) ها هو هنا يقول «أنا عطشان».

له ميازيب السما وكل عمر قد ظمأ
لكنه من الظما قال أنا عطشان

لقد أخلى نفسه، ووجِدَ في الهيئة كإنسان (في٢:٧،٨). لقد افتقر وهو غني (٢كو٨:٩) وأيُّ فقر هذا الذي وصل إليه؟! تأملي يا نفسي في بي تتنازل بذاك

المجيد، وفي افتقار ذلك الغنيّ. ما أوسع الهوة، وأبعد المسافة، بين رب المجد على العرش والمصلوب على الصليب، بين ذاك «المُسقِف علاليه بالمياه» (مز ١٠٤: ٣) وذاك الذي نسمعه هنا يقول: «أنا عطشان»!

يا لها مِنْ صرخةٍ منها ارتعش ... قلبي، بل والفكرُ حارَ واندهش
صرخةُ الإنسانِ مِنْ فقرٍ إلى ... قطرةِ الماءِ التي تُطفي العطش
كيف ربّي قد عطشتَ مرّةً ... وبك الأحياءُ طُرّاً تنتعش
قد صرختَ «أنا عطشان» لكي ... يرتوي الخاطئ منك ويعيش

لكننا في هذا النطق نرى أيضاً شيئاً آخر؛ لا عمق افتقار الفادي فحسب، بل أيضاً شدة آلامه وقسوتها. فمن بين الكلمات السبع التي نطق بها – له المجد – من فوق الصليب، كان هذا النطق هو الوحيد الذي عبَّر به عن آلامه الجسدية. وفي خلال رحلة التعذيب القاسية لم ينطق المسيح بكلمة تعبِّر عن تلك الآلام الرهيبة سوى هذه العبارة.

لَكَم تحمَّل الرب يسوع فوق الصليب من آلام! فهو لمَّا وصل إلى الجلجثة كان في إعياءٍ وإجهادٍ شديدين بسبب أحداث الليلة الماضية، إذ كان قد تحدَّث مع تلاميذه حديث الوداع الطويل والذي شغل نحو خمسة أصحاحات كاملة من إنجيل يوحنا، وبعده مضى إلى بستان جثسيماني حيث كان في جهاد وكان عرقه يتساقط كقطرات الدم إلى الأرض، ومن هناك قُبِضَ عليه، وسِيق للمحاكمات المتتالية: المحاكمة الدينية في جلساتٍ ثلاث، ثم المحاكمة المدنية في جلساتٍ ثلاث أيضاً. ثم الجَلد الرهيب القاسي، ثم حمْل الصليب الثقيل، والخروج به إلى خارج أورشليم حيث تمت عملية الصلب القاسية الوحشية. ولما صُلِبَ قضى فوق الصليب ست ساعات وكان من وقع معاناته ما عبَّر عنه

في المزمور «يبست مثل شقفة قوتي، ولصق لساني بحنكي» (مز ٢٢:١٥).

ومع اعتقادنا بأن الآلام الكفارية التي أشرنا إليها في نطق المسيح السابق «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» هي جوهر الصليب، وأن ما احتمله المسيح من يد العدل عندما جُعِل خطيةً كان أقسى بكثير جداً مما احتمله من يد البشر، فلئلا يجنح الفكر البشري إلى التطرف الآخر فيستصغر آلام المسيح الجسدية، بل قد وصل الأمر ببعضهم أن يتوهموا أن المسيح لم يشعر بتلك الآلام، فإن ذلك النطق الخامس للمسيح من فوق الصليب يبعد عنا هذا التصور غير الصحيح.

وليس فقط بسبب شدة الآلام الجسدية وما عاناه جسد المسيح القدوس من آلام كان إحساسه بالعطش، بل أيضاً من تأثير تعبه النفسي. يقول سليمان الحكيم «الروح المنسحقة تجفف العظم» (أم١٧:٢٢)، ويقول داود في المزمور ٣٢:٤ «تحولت رطوبتي إلى يبوسة القيظ»، فهذه الصرخة، إذاً، تعبِّر أيضاً عن عمق آلام روح المسيح في داخله.

بل إننا نتجاسر ونقول إن ثمة علاقة بين هذا النطق وآلام المسيح الكفارية. فنحن نلاحظ أن كلاً من متى ومرقس ربط بين شرب المسيح الخل قبل موته، وصرخته الرهيبة «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»، وكيف ظن الواقفون أنه ينادي إيليا ليخلصه. لكن الحقيقة أنه لم يكن ينتظر خلاص إيليا، بل هو من كان إيليا ينتظر خلاصه. إنه هو من كان يرمز إليه الثور الثاني في ١ملوك ١٨: ٣٠-٣٨ الذي سقطت عليه نار الرب وأكلته مع الحطب والحجارة والتراب، ولحست كل المياه. ولهذا فقد قال هنا «أنا عطشان».

لكن تأمل، يا أخي الحبيب، كيف تجاوب البشر مع ذلك المحب الودود! وكم كانت كراهيتهم له بغير حدود: فحتى وهو يموت يقدمون له الخل بدل الماء!

عزيزي: إنَّ جهنم، ذلك المكان المروِّع الذي سيُطرَح فيه كلُّ الخطاة غير

التائبين، يصوِّرها لنا الكتاب المقدس بأنها ظلام ووحدة وعطش. والمسيح فوق الصليب احتمل ذلك كله لأجلنا. كان نطقه السابق تعبيراً عن الظلمة والوحدة، فمن أعماق الظلمة صرخ «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»، والآن بنطقه الخامس يعبر عن العطش «أنا عطشان». وبينما السماء منعت عنه ومضة من النور، أنكرت الأرض عليه قطرة من الماء!

هذا ما عاناه المسيح لأجلنا. لقد تحمَّل الألم المرير والعطش القاسي ليرحمنا من العطش الأبدي. ألا تنظر الآن إلى الذي صُلِبَ من أجلك؟ هل تنظر إليه بالإيمان، ذاك الذي أحبك، أم أنك ترفضه وتمضي إلى الظلمة الأبدية والعطش الأبدي؟

لا تتذمر، لو لم يكن لديك سوى الماء لتشربه، لأن سيدنا وهو يموت لم يحظ بهذه النعمة! ولا تتذمر لو كان طعم الدواء في فمك مُرّاً لأن سيدنا أعطوه قبيل موته الخل، فشربه ثم مات!

والآن دعني أتحول بالحديث إلي كل متألِّم أو مُجرَّب. عزيزي، إذا كنت تجتاز في الام مريرة وتجارب قاسية، إذا كنت تعاني من جرّاء فقر مدقع وحاجة شديدة، فتَفَكَّر في المسيح الذي سبق أن جاز في أرض الشقاء، والذي جاء إلى مركز بؤسنا. إن ذاك الذي رأيناه في الصليب يصل إلى عمق الفقر ويقاسي شدة الألم، يقدر أن يرثي لنا لأنه مُجرَّب في كل شيء مثلنا بلا خطية. وفيما هو قد تألم مجرَّباً يقدر أن يعين المُجرَّبين (عب٢:١٨).

لقد سُرَّ – تبارك اسمه – بإرادة الآب، وقَبِلها، حتى لو كانت العطش الشديد. قال أحد رجال الله: "لا تتذمر، لو لم يكن لديك سوى الماء لتشربه، لأن سيدنا وهو يموت لم يحظَ بهذه النعمة"! وقال آخر: "لا تتذمر لو كان طعم الدواء في فمك مُرّاً لأن سيدنا أعطوه قبيل موته الخل، فشربه ثم مات"! نعم، لا تتذمر بل

ضَعْ الشجرة المقطوعة في وسط مرارة قلبك: ضع المسيح وهو فوق الصليب في ظروفك المحزنة المريرة، وسرعان ما ستتحول المرارة إلى حلاوة.

لكن لا يكفي ألا نتذمر، بل ليت لغتنا تكون لغة الشكر. ففي الواقع، ما أقل شكرنا! أتُرانا نفكر في كأس الماء التي نشربها لكي نشكر الله عليها؟ بل كم لدينا ما هو أكثر بكثير من كوب الماء، ومع ذلك ما أقل شكرنا! أولا يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه، والعبد كسيده؟ لكنه في نعمته لا يسمح لنا أن نصل إلى ما وصل إليه هو من فقر واحتياج.

كمال الكتاب المقدس، وكمال عمل المخلص

كم يسعدنا أن بين أيدينا كتاب الله العظيم، الله المسيطر على كل الأمور والذي يعلم النهاية من البداية. ولقد أخبرنا الله بما سوف يحدث، وسجّله في كتابه العظيم، هذا الكتاب الذي لا يمكن أن يُنقَض المكتوب فيه على الإطلاق.

لقد تمّت كل النبوات التي تتحدث عن اتضاع الرب وآلامه في دقة عجيبة. لا في صورة روحية – كما يفتكر قوم يظنون أن نبوات الكتاب لا تُؤخذ حرفياً بل روحياً – كلا، فكل النبوات التي تتحدث عن اتضاع المسيح وآلامه تمت بحسب معناها البسيط والصريح والواضح. وإنَّ نُطق المسيح الخامس من فوق الصليب ينفي تماماً فكرة روحنة النبوة. فالواقع أنه لو كانت معاني النبوة لا تُؤخذ حرفياً، بحسب معناها الحرفي والدقيق، لَمَا كان هناك لزوم لنُطق المسيح هذا على الإطلاق، لأن المسيح في كل حياته ذاق المرار وشرب الخل معنوياً. لكن النبوة التي وردت في المزمور ٢١:٦٩، مع أنها في ذاتها نبوة صغيرة، وقد تبدو في أنظارنا غير هامة، فها هنا كما في كل أمر آخر «لا يمكن أن

ينقض المكتوب» (يو١٠:٣٥). تقول هذه النبوة بصريح العبارة «وفي عطشي يسقونني خلاً». وكان لا بد أن تتم تلك النبوة بكل دقة، بلا أدنى تجاوز أو تقريب. ولهذا جاء هذا النطق الخامس «لكي يتم الكتاب».

لعلنا نتذكر أن المسيح وُلِدَ في بيت لحم، كما تقول النبوة في ميخا ٢:٥. ولم يكن هذا الأمر ليحدث لو أن الأمور سارت في مجرياتها الطبيعية، لأن المُطوَّبة العذراء مريم كانت تسكن الجليل في شمال فلسطين. فحدث الاكتتاب العالمي (أي التعداد أو الإحصاء) بأمر الإمبراطور، وتحرك الآلاف والملايين من بلاد إلى بلاد، ولم يكن ذلك كله في حقيقة الأمر إلا لتتميم نبوة واحدة عن مكان ميلاد المسيح كان لا بد أن تتم حرفياً. وكما حدث في بداية حياته، حدث أيضاً عند الصليب حين جاء النُّطق الخامس كيما تتم إحدى النبوات عن عطشه وشربه الخل. نعم، لكي تتم حَرفيًا كل النبوات من المهد إلى اللحد.

إن كلمة الله ودرج الكتاب يحدثاننا بأن المسيح كان سيعطش، وأن الناس الأردياء كانوا سيقدمون الخل له في عطشه، وكان هو سيشربه. وكان لا بد أن يتم ذلك بكل دقة. وهنا نحن لا نرى فقط دقة المكتوب، بل أيضا تقدير الرب يسوع الكامل للمكتوب. إنه هو الذي جاءت عنه النبوة «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررتُ، وشريعتك في وسط أحشائي» (مز٤٠:٨). لقد كان المسيح يُقدِّر الكلمة تماماً، ويركن إليها بلا حدود: بها قاوم إبليس في التجربة في البرية عندما رد عليه ثلاث مرات «مكتوب» ففرَّ الشيطان منه. كما فعل الشيء عينه في محادثاته مع قادة الأمة من الفريسيين أو الصدوقيين. لقد ردَّ عليهم من المكتوب، وأفحمهم. وها نحن مرة أخرى، في مشهد الصليب نرى أيضاً إركانه الكليَّ إلى المكتوب.

لقد كان المسيح على الصليب يعايش جوَّ الأحزان والآلام المذكورة في

المزمور ٦٩. هذا المزمور المؤثِّر الذي فيه نستمع إلى صرخات المسيح «خلِّصني يا الله، لأن المياه قد دخلت إلى نفسي. غَرِقتُ في حمأة عميقة، وليس مقر. دخلت إلى أعماق المياه، والسيل غمرني. تعبت من صراخي. يبس حلقي، كلَّت عيناي من انتظار إلهي، أكثر من شعر رأسي الذين يبغضونني بلا سبب. اعتزَّ مُستهلكيَّ أعدائي ظلماً. حينئذٍ رددت الذي لم أخطفه». ويستمر المزمور في وصف آلام المسيح المتنوعة إلى أن يصل إلى القول «العار قد كسر قلبي فمرضتُ، انتظرتُ رقةً فلم تكنْ، ومُعَزِّين فلم أجد. ويجعلون في طعامي علقماً» ثم أخيراً، في آخر قائمة الآلام يقول «وفي عطشي يسقونني خلاً».

> إن المسيح ليس فقط لم يعمل لأجل نفسه شيئاً، بل أيضاً لم يتكلم لأجل نفسه كلمة. فحتى في أدق الخصوصيات، وألزم الضروريات، عندما عطش عطشاً شديداً فوق الصليب، لم يقل أنا عطشان إلا لكي يتم الكتاب!

ويجب أن نُميِّز بين ما سجله البشير متى في إنجيله من أنهم قدَّموا للمسيح في بداية الصليب خلاً ممزوجاً بمرار، وكانت هذه عادة يقدمون بمقتضاها للمحكوم عليهم بالصلب مادةً مُسكِرَةً تخفف قليلاً من آلامهم. والمسيح رفض أن يأخذه. يقول الوحي «لما ذاق لم يُرِد أن يشرب» (مت٢٧:٣٤). لقد ذاق مرارته لكنه رفض ابتلاعه لكي لا يؤثر على إحساساته وهو يحتمل دينونة الخطية. لكنه الآن، وبعد أن أكمل كل العمل، شرب الخل «لكي يتم الكتاب»!

ومما سبق نستنتج أن قُوى المسيح الذهنية كانت حاضرة تماماً في كل فترة الصلب، حتى أمكنه أن يرى ويعلم أن كل شيء قد كمل. لكن الأجمل من ذلك هو خضوع المسيح الكامل للمكتوب. ومع أن المسيح

كان يحس فعلاً بالعطش الشديد والرهيب، فإنّ هذا في ذاته لم يكن سبباً كافيـــاً لأن تنطق شفتاه الطاهرتان بصرخة «أنا عطشان». كلا، بل بوصفه العبـــد المطيـــع، الذي مع كونه ابناً تعلم الطاعة مما تألم به، قد نطق بهذا النُطق، لا ليروى غليلـــه، بل لسبب أهم جداً في نظره. لقد علِم المسيح أن كل شيء قد كمـــل، وأنـــه علـــى وشك ترك العالم، وعليه فما كان مهماً إرواء غليله ما دام موته بات وشـــيكاً، بـــل إنه قال ما قاله «لكي يتم الكتاب».

قال رجل الله داربى: "إنَّ المسيح كان شخصاً فريداً، عاش حيـــاة لا نظـــير لها". فلقد لاحظ من دراسته للأناجيل أن المسيح لم يعمل عملاً واحـــداً لنفســـه قط، بل كانت كل أعماله وكل معجزاته لأجـــل الآخريـــن. ونحـــن يمكننـــا أن نضيف أنه ليس فقط لم يعمل لأجل نفسه شيئاً، بل أيضاً لم يتكلم لأجـــل نفســـه كلمة. فحتى في أدق الخصوصيات، وألزم الضروريات، عندما عطش عطشـــاً شديداً فوق الصليب، لم يقل «أنا عطشان» إلا «لكي يتم الكتاب»!

هذا بالنسبة لذلك الشخص المبارك. تُرَى ما هو الحال بالنسبة لنا؟ ما هـــو الكتاب المقدس بالنسبة لك أيها القارئ العزيز؟ الكتاب الـــذي لا يحدّثـــك عـــن خلاص نفسك فقط، بل عن شخص مخلصك أولاً وأخيراً.

هل لهذا الكتاب العظيم مكان في حياتك وقراءاتك؟ ثم إذا كنت تقرأ فيـــه، فكيف تقرأ؟ أتقرأه بانتظام؟ وبشغف؟ وبفهم؟ ثم إذا كنـــت تفهمـــه فـــهل تعيشه؟ هل تنفذ ما يقوله الله لك فيه؟ وهل ما يقرره الكتـــاب المقـــدس هـــو الفيصل لك في كل أمر كما كان بالنسبة للمسيح؟

ليت الرب يسوع الذي مضى إلى الصليب ليتمم مشيئة الله، والـــذي فـــوق الصليب وفي شدة العطش صرخ قائلاً: «أنا عطشان» لكي يتم الكتاب، يبـــارك حياتك فيمكنك أنت أيضاً أن تقول مع المرنم «دربِّني في سبيل وصايـــاك لأنـــي

به سررتُ. أَمِلْ قلبي إلى شهاداتك، لا إلى المكسب... ثبِّتْ خطواتي في كلمتك ولا يتسلط على إثم» (مز١١٩: ٣٥،٣٦،١٣٣).

صرخة الإنسان المسكين، وعذابه إلى أبد الآبدين

هذه العبارة الصغيرة والعميقة «أنا عطشان» ترينا أن المسيح - تبارك اسمه - قَبِل أن يأخذ مكاننا فوق الصليب. كان بيلاطس البنطي قد قال، مشيراً إلى المسيح، قبيل الحكم بصلبه مباشرة «هوذا الإنسان»، وها المسيح هنا كأنه يجيب عليه بالقول «أنا عطشان»، فهذه هي بحق صرخة البشرية جمعاء. ومن كان بوسعه أن يروي غليل البشرية سوى المسيح ابن الله الذي افتقر من أجلنا وهو غني لكي نستغني نحن بفقره (٢كو٨: ٩)؟ ذاك الذي قَبِل أن يصير عطشاناً ليروي عطشنا الأبدي. لقد عبَّر المسيح عن هذه الحقيقة في أيام جسده عندما قال للمرأة السامرية في يوحنا٤: ١٠ «لو كنت تعلمين عطية الله، ومن هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب، لطلبت أنت منه فأعطاك ماء حيا». وكأن الرب يقول للسامرية: لو علمت حقيقة هذا الشخص الذي أمامك، وكم افتقر وكم تكلف حتى يبدو أمامك رجلاً متعباً محتاجاً إلى قليل ماء، لو علمت هذا فإنك يقيناً كنت تطلبين الماء منه فوراً، وكان هو يعطيك إياه في الحال.

لقد كانت هذه المرأة تمثِّل البشرية في بؤسها وبحثها عما يروي الغليل تحت الشمس. لقد سعت وراء الملذات والشهوات. قال لها المسيح «كان لك خمسة أزواج والذي لك الآن ليس هو زوجك». فهل استطاعت هذه الأمور أن تروي تلك النفس البائسة؟ كلا، بل زادتها عطشاً «كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً»، أي يزداد عطشاً. وكما كانت المرأة السامرية أيام المسيح هكذا الملايين

اليوم يجرون وراء اللذة الوقتية والمتعة العرضية، لكن ما زالت البئر عميقة فمن أين للإنسان الماء المروي؟ يقولون إن الحاجة أم الاختراع، فإذا كان هذا صحيحاً، فكم عالم اليوم باختراعاته التي لا تنتهي يحكم على نفسه بأنه يزداد احتياجاً يوماً بعد يوم؟ إن هذه الاختراعات تؤكد حاجة الإنسان لكنها لا تسدها، فلو كان بوسع هذه الأمور أن تسعد الإنسان لما تكلف ابن الله هذه الكلفة الرهيبة، ولما افتقر هذا الفقر الشديد كيما يهبنا الماء الحي. قال المرنم قديماً «عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحي». وهو عين ما عبر عنه أحد القديسين القدماء عندما قال: "لقد خلقتنا يا الله لذاتك، ولن نجد سعادتنا بعيداً عنك". حقاً لا شخص، ولا جهاز، ولا عقيدة يمكن بحق أن يروي ظمأ النفس الأبدي، أو يريح القلب. هناك شخص واحد فقط، ابن الله الذي قال عنه المرنم:

سمعت صوته يذيعُ القول إعلانا
ماءُ الحياةِ إنني أعطيه مجانا

تعالَ يا عطشانُ واشربْ واغنم الحياهْ
فجئته حالاً وقد شربتُ من مَجْراه

فجئته كما أنا ذا حَزَنٍ مُتعَبْ
فتمَ لي من بهجتي وراحتي المطلبْ

هل تشعر أيها القارئ العزيز بالعطش، ولا تجد في هذا العالم ما يروي عطش نفسك؟ إن ابن الله الكريم قد جاء إلى هذا العالم البائس ليخلص الخطاة. وأنت إن أتيت بالإيمان فسيُشبع جوعك الروحي ويروي ظمأك. فلقد قال بفمه الكريم «من يُقبِل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو٦: ٣٥).

وخطية الإنسان وبعده عن الله لم ينتج عنهما مجرد العطش في هذه الحيـاة، بل إن في انتظاره ما هو أمرّ وأنكى، في انتظاره أبدية بلا نهاية سيكون نصيبـه فيها العطش الأبدي الرهيب. لقد ذكرنا في ما سبق أن المسيح أتـى ليشـاركنا في بؤسنا كيما يمكنه أن يرثي لنا فـي ظروفنـا ليقـدر أن يعيـن المجربيـن. ونضيف الآن أنه أيضاً أتى إلى العالم ليعالج المشكلة ويجتث جذورها. ولـهذا فقد ذهب إلى الصليب، بل عطش أيضاً - تبارك اسمه - ليعفينا مـن العطـش الأبدي. ففي حياته شاركنا الألم، وفي موته اقتلع جذور المشكلة.

* * * *

لقد عبّرت صرخة المسيح السابقة «إلهي إلهي لماذا تركتني؟» عن آلام نفسـه، لكن هذه الصرخة «أنا عطشان» تعبر عـن آلام جسده. وذلك لأن الخطية في أجرتها لا تنحصر في النفس وحدها، ولا في الجسد وحسـب، بـل في كليهما. لقد قال المسيح مرة «خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فـي جهنم» (مت١٠: ٢٨). ولهذا فقد احتمل المسـيح لأجلنا العذاب في نفسه وجسده.

ولهـذا فقـد ذهـب إلى الصليب، بل عطش أيضاً - تبارك اسمه - ليعفينـا من العطـش الأبـدي. ففـي حياتـه شـاركنا الألم، وفي موته اقتلع جذور المشكلة.

إن صرخة الرجل الغني في الهاوية، بل طلبتـه الوحيدة فيها، عندما رأى إبراهيـم مـن بعيـد ولعازر في حضنه، هي «يا أبي إبراهيم، ارحمني، وأرسل لعـازر ليبـل طـرف إصبعه بماء ويبرد لساني، لأني معذب في هذا اللهيب» (لو١٦: ٢٤). ومع تفاهـة الطلب وتواضعه جداً، فإنه لم يُعطَ لذاك الذي كان يوماً غنياً. لماذا إذاً لا تأتي إلـى المسيح الذي يعطي الماء الحي، والذي قبلَ أن يعطش وهو فوق الصليب ليرويك؟!

مرة تهكم ملحد كان يعشق الخمر، تهكم بالسماء وسكانها، فقال أمـــام أحـــد المؤمنين: "أنا لا أريد أن أذهب إلى سمائكم التي ليـــس فيـــها خمـــر". أجابـــه المؤمن : "لكن تذكر أن جهنم ليس فيها ماء"!

نعم لقد أدخلت الخطية العطش إلى الإنسان. لكن المسيح أتى بهذا النـــداء الحلو في يوحنا ٧ «إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب». لكنه هنا، وهـــو فـــي مكان الخطاة على الصليب، ها هو بنفسه يصرخ «أنا عطشان» كبرهان علـــى أنه أخذ مكان الخطاة وتحمل أجرة الخطية ونتيجتها.

أما بالنسبة للمؤمنين فما أسعد حاضرهم وما أمجد مســـتقبلهم. الآن جعـــل الرب سروراً في قلوبنا أعظم من سرورهم، إذ كثرت حنطتهم وخمرهم. أمـــا المستقبل فما أمجد ما سنتمتع به عن قريب عندما يأتي ربنا ثانية ليأخذنـــا إليـــه وليكمل عمل الفداء.

أيـــها الســـائحُ مـــاذا أنت راجٍ فـــي النعيـــمْ
إكليـــلَ بـــرٍّ مجيـــدٍ من يدِ الفـــادي الكريـــمْ
والثيابَ البيـــضَ تكســـو كلَ مـــن نـــالَ الفِـــدا
حيث نهرُ الروضِ صـــافٍ يرتـــوي منـــه الظمـــا

الآن هنا أنهار مياه حية تَجري من بطن المؤمـــن بالمســـيح، لكـــن هنـــاك ينتظرنا نهر من ماء حياة لامعاً كبلور. هذا كله ينتظـــر فقـــراء هـــذا العـــالم وظمأى هذه الأرض، لكن ذلك الغِنى العجيب والتمتع الأبدي ليـــس بالانفصـــال عن الأحزان والآلام التي عاناها مَنْ قَبِلَ من فوق الصليب أن يصـــرخ لأجلنـــا قائلاً: «أنا عطشان».

عطش المسيح في ذلك اليوم، وإلى اليوم

تُرى ما الذي نقصده بعطش المسيح في ذلك اليوم؟ إلى أي شيء كان المسيح عطشاناً في يوم صلبه؟ مع أننا نؤكد أن المسيح كان فعلاً عطشاناً جسدياً للماء الطبيعي، كما ذكرنا قبلاً، فإننا أيضاً نعتقد أن لهذه العبارة بُعداً أكبر من مجرد العطش الجسدي. فهي تعني بالإضافة إلى ذلك شيئين على الأقل:

١- العطش إلى الله

٢- العطش إلى إكمال عمل الفداء

ماذا نقصد بعطش المسيح إلى الله؟ لقد نطق المسيح بعبارة «أنا عطشان» بعد صرخته المرة «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟». فترك الله له مدة ثلاث ساعات كاملة جعله يحس بالعطش الشديد. لقد كان لسان حاله ما جاء في المزمور ١٤٣: ٦ «بسطت إليك يديَّ. نفسي نحوك كأرض يابسة»، وأيضاً ما جاء في المزمور٤٢: ١-٣ «كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله. عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحي، متى أجيء وأتراءى قدام الله... إذ قيل لي كل يوم: أين إلهك؟». لهذا فبعد هذه الصرخة مباشرة قال «قد أُكمل»، ثم «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». نعم لم تكن تلك الصرخة فقط صرخة جسده المحتاج إلى الماء، بل بالحري صرخة نفسه المشتاقة إلى الله!

وماذا نعني بالعطش إلى إكمال الفداء؟ لقد عبّرت صرخة المسيح «أنا عطشان» عن اشتياقه ورغبة قلبه لإتمام عمل الفداء. هذا الاشتياق الذي عبّر عنه مرة لتلاميذه بالقول «لي صبغة أصطبغها (مشيراً إلى آلام موت الصليب) وكيف أنحصر حتى تكمل» (لو١٢: ٥٠)؛ أو كم أنا محصور حتى تكمل تلك الآلام. وها هنا المسيح تبارك اسمه في نهاية مشوار الألم، وقد رأى أن كل

شيء قد كمل، قال «أنا عطشان»، أي أنا عطشان لإتمام النبوة الصغيرة الباقية ولإكمال عمل الفداء. وبعدئذ قال «قد أكمل». ويعلق الرسول بولس على ذلك بالقول «رئيس الإيمان ومكمله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي» (عب١٢: ٢). نعم، فلقد كان السرور الذي أمامه أن يكمل عمل الفداء، كيما يأتي بأبناء كثيرين إلى المجد.

لكن ذاك الذي كان عطشاناً في ذلك اليوم ما زال إلى اليوم عطشانَ. وهو أيضاً عطشان إلى أمرين رئيسيين.

أولا: إنه **عطشان إلى النفوس الهالكة المائتة**. فذاك الذي عطش ليرحمنا من العطش الأبدي، وبعمله هذا أدخل إلى قلوب الملايين من المؤمنين تعطشاً حقيقياً إليه، ما زال متعطشاً إلى النفوس، يريد أن ينظر الكثيرون من المساكين والتعساء إلى صليبه فيغمرهم الارتواء الأبدي. وهو عين ما نقرأه في يوحنا ٤ يوم تقابله مع المرأة السامرية. فلقد قال لها أعطيني لأشرب. ونحن لا نقرأ في الأصحاح أنها أعطته الماء الحرفي، بل أعطته قلبها البائس وحياتها الضائعة ونفسها المعذبة القلقة فأسعدها، وارتوى لما أرواها.

إلى هذا ما زال المسيح عطشاناً. إنه عطشان لخلاص الخاطئ. فهل نبادر بأن نقدم تلك النفوس الغالية إليه؟! لا عجب أن المسيح يوم لقائه بالسامرية قال لتلاميذه «ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضت للحصاد... لكي يفرح الزارع والحاصد معاً» (يو٤: ٣٥،٣٦).

لكنه أيضا عطشان إلى **تكريس المؤمنين**، أولئك الذين من أجلهم عطش وهو على الصليب. نعم إنه ما زال عطشانَ إلى محبتهم وعبادتهم وخدمتهم له! أفلا يستحق ذلك المجيد أن نشق لأجله محلة الأعداء ونستقي له الماء (٢صم٢٣: ١٥،١٦)؟ وإن كان أبطال داود فعلوا لك قديماً مع مليكهم، أفلا

يستحق سيدنا أكثر؟

ليس ذلك فحسب، بل ويا للعجب، ففي يوم قادم سيسمع فريق من المؤمنين هذه العبارة من فم سيدنا «إني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني» وهم إذ يندهشون من هذه العبارات ويقولون له باستغراب «يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك؟...» يجيب عليهم قائلاً «الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم» (مت٢٥: ٣٤-٤٠). ومن هذا نتعلم أنه حيث إخوةً للمسيح في حاجة إلى مد يد المعونة والإسعاف، لتخفيف آلامهم ولمساعدتهم على تحمل النوائب التي تحل عليهم، فهناك يسوع في همساتهم الضعيفة المتهالكة يقول «أنا عطشان».

* * * *

وفي الختام أقول: ذاك الذي تعب لأجلنا، وعطش، ومات وهو عطشان، ألا يستحق أن نأتي إليه بصادق الحب، ونعطيه لا فضلة الحب بل أفضله؟ ألا يستحق أن نعطيه المحبة الأولى، كيما يرى من تعب نفسه ويشبع؟! سيتم ذلك حتماً عن قريب على أكمل وجه، عندما يأتي لأخذ قديسيه وكنيسته إليه فيجتمع حوله في السماء الملايين التي لا تُحصى من المفديين، يشربون من نهر الحياة الخارج من عرش الله والخروف. نعم عندئذ سيتحقق القصد النهائي من الفداء ومن الصليب ومن صرخته الغالية على قلوبنا «أنا عطشان». لكن ليتنا نحرص على ذلك من الآن.

العبارة السادسة من فوق الصليب

كلمة الانتصار

بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال: أنا عطشان. وكان إناء موضوعاً مملوءاً خلّاً، فملأوا إسفنجة من الخل، ووضعوها على زوفا، وقدموها إلى فمه، فلمّا أخذ يسوع الخل قال:

قد أُكْمِلَ

(يو ١٩: ٢٨-٣٠)

لقد وصلنا الآن، ونحن نتتبع عبارات المسيح السبع التي نطق بها - له المجد - من فوق الصليب، إلى العبارة السادسة، تلك العبارة القصيرة والعظيمة الواردة في إنجيل يوحنا ١٩ «قد أُكمِل». وفي الواقع أننا مهما تكلمنا عن هذه العبارة فلن نفيها حقها، ومهما أسهبنا في شرحها ففي النهاية لن يكون حديثنا عنها قد أُكمل. فهذه العبارة هي باللغة الأصلية للعهد الجديد (اللغة اليونانية) مكونة من كلمة واحدة تُنطَق "تيتيليستاي". وهي بكل يقين أعظم كلمة مفردة نطق بها إنسان، أو سمعتها الآذان. هذه الكلمة الواحدة هي مثل القطرة لكنها تحتوي على المحيط. فإننا نحتاج إلى كل مفردات اللغة لشرحها، وإزاءها نشعر أننا أمام بحر من الأسرار لا يمكننا عبوره. وكل ما نستطيعه هو أن نقف على شاطئه نتأمل أسراره من بعيد، ونستمع إلى هدير أمواجه. ومع أن المفسرين حاولوا، على مدى التسعة عشر قرناً الماضية، شرح تلك الكلمة الواحدة، وكل منهم أدلى بدلائه واستقى، لكن النبع نفسه ظل فائضاً كما كان. ولا عجب، لأن كلمة كهذه «قد أُكمل»، من شخص كهذا: حمل الله الكريم، وفي مناسبة كهذه: آخر لحظاته من فوق الصليب، لا بد أنها تحتوي على أعماق تفوق إدراك البشر، وتعني أشياء مغروسة في قلب اللاهوت لا يقدر الذكاء البشري بلوغ مداه. والأبدية وحدها ستكون المجال لفهم الكثير من معنى هذه العبارة السادسة للمسيح من فوق الصليب «قد أُكمل».

ونبدأ حديثنا عن هذه الكلمة بالإشارة إلى:

أولاً: مدلول كلمة «قد أُكمل»

يقول العارفون بعادات ذلك الزمان ولغته إن هذه العبارة "تيتيليستاي" كان يقولها الخادم بعد أن يُكمل العمل الذي كلفه إياه سيده. وكان يقولها التاجر بعد أن يسدِّ الفواتير والكمبيالات التي ينبغي سدادها. وكان يقولها أيضاً الفنان بعد أن يضع لمساته الأخيرة على عمله الفني، كما كان يقولها القائد الظافر في معركته وهو يسير في موكب النصر. هكذا هنا فوق الصليب، قال عبارة "تيتيليستاي" الخادم الكامل، والتاجر العظيم، والفنان الحقيقي، والمحارب المظفَّر. الخادم الذي تمم كل مشيئة الله، والتاجر الذي سدَّ كل ديون مفديه، والفنان الذي أكمل عمل الخلاص العظيم، والمحارب الذي هزم الشيطان وسحق رأس الحية.

«قد أُكمل»: إنه أعظم وأخطر إعلان سمعه إنسان منذ بدء الخليقة. فالذي أكمله ربنا يسوع المسيح كثير، بل كثير جداً. لقد أكمل عمل الفداء، وأنهى خطة المصالحة من وجهة نظر الله، ووضع أساس إنجاز كل مشورات الله الصالحة، وفيه تمت كل النبوات عن آلامه، وهو الذي قام بسداد كل الديون. والأرجح أن المسيح قال كلمته هذه "تيتيليستاي" بصوت عظيم، مثل كلمته السابقة «أنا عطشان»، واللاحقة «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». فهذه الكلمة – كما سنرى – لم تكن أبداً أنَّة ضعف وخَوَر، بل كانت صيحة غلبة وظَفَر.

لم يقل المسيح هنا: أنا انتهيت، بل أنا أنهيت. بل أكثر من ذلك، أنا أكملت: أكملت عملاً مُتقَناً دون أن أبقي فيه شيئاً ناقصاً على الإطلاق. عندما يموت الإنسان ينتهي، وتهلك أفكاره ومشروعاته معه (مز١٤٦: ٤). لكن المسيح بموته كان ينجز أعظم المشروعات على الإطلاق، كان يضع الأساس

الراسخ لكل مشروعات الله وقصد الدهور.

هذه العبارة تمثل النُطق السادس للمسيح من فوق الصليب. ونحن نعرف أن الرقم ٦ هو رقم العمل. ففي ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها (خر٢٠:١١)، وفي ست ساعات أكمل عمل الفداء، وكان ذلك أيضاً في اليوم السادس من الأسبوع، يوم الجمعة. وها هو من فوق الصليب في نطقه السادس يقول «قد أكمل».

كثيرون، عندما أتت لحظة موتهم، نظروا إلى ماضيهم وتأملوا ما تمموه في حياتهم بالمقابلة مع ما كانوا ينوون أن يفعلوه، فامتلأوا بالأسى والأسف، وكأنهم يقولون: "ما أعظم ما كنت أود أن أفعل، وما أقل ما أنجزته بالفعل". أما المسيح فليس هكذا. وحتى لو كان هؤلاء أنجزوا كل ما كانوا يتمنون، ذاك الذي لأجله أوقفوا حياتهم كلها، وكانوا بذلك قد أضافوا إلى رقعة المعرفة مساحة جديدة، أو وطئوا بأقدامهم أرضاً جديدة، فما قيمة هذا كله بالمقابلة مع ذلك العمل الذي أتمه ابن الله* من فوق الصليب؟

مرة قال نحميا: «أنا عامل عملاً عظيماً، فلا أقدر أن أنزل» (نح٦:٣)، لكن الذي كان يعمل العمل العظيم بكل معنى الكلمة هو المسيح، ولم ينزل فعلاً، لم ينزل من على الصليب إلا بعد أن أتمه. نعم لقد أكمل المسيح العمل العسير الذي أمامه يعتبر خلق السماوات والأرض شيئاً أيسر بكثير. فخلْق الكل كان بمجرد أمر وكلمة «بكلمة الرب صُنِعَت السماوات، وبنسمة فيه كل جنودها» (مز ٦:٣٣)، أما مصالحة الكل فاستلزمت دم الصليب. نعم، لقد أكمل المسيح العمل الذي لأجله أخذ صورة عبد، والذي لأجله تجسَّد، ولأجله عاش فوق الأرض أكثر

---

* لا غرابة في أن هذه الكلمة لم تَرِد إلا في إنجيل يوحنا فقط الذي هو إنجيل ابن الله، فمن سوى الكلمة الأزلي الذي صار جسداً وحل بيننا، يقدر أن ينطق بمثلها؟!

من ثلاث وثلاثين سنة، ولأجله قضى فوق الصليب ست ساعات كاملة. ها هنـــا – تبارك اسمه – وقد أكمل العمل يصرخ قائلاً «قد أُكمِل*».

ثانيا : أدلة كمال عمل المسيح

يمكننا أن نتتبع عدة أدلة لكمال عمل المخلص من فوق الصليب، وهي أدلـــة فورية وقوية وأبدية كالآتي:

الأدلة الفورية: وهي أدلة منظورة ومحسوسة. فنحن نعرف أنـــه عندمـــا كان المسيح معلّقًا فوق الصليب حدثت ظلمة معجزية فوق الأرض كلها. ومـــثما إن صرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح حتى انقشع الظلام الذي خيم بغتـــة على الأرض، وملأ الكون الضياء. وهذا يدل على أن المســـيح، الـــذي كـــان متروكاً من الله، قد أنهى العمل وأنجز المهمة. لكن ليس فقط عاد الضياء، بـــل حدث شيء آخر، أعني به الزلزلة التي شقّقت الصخور، وفتّحت القبـــور، بـــل

---

* يوحنا الذي ذكر كلمة «قد أُكمِل» في إنجيله، أشار أيضاً مرتين فـــي ســـفر الرؤيـــا إلـــى عبـــارة مشابهة (لكنها ليست الكلمة عينها) وهي عبارة «قد تم». المرة الأولى في رؤيـــا ١٦: ١٧، مـــع هذا الفارق أن عبارة رؤيا ١٦ تتحدث عن الدينونة التي ستقع على العالم الأثيم المذنب، أمـــا فـــي الإنجيل فتشير إلى الدينونة التي احتملها ابن الله. ومع خطـــورة الدينونـــة التـــي ســـتقع علـــى الأشرار، لكنها لا تُقارن بتلك التي احتملها المسيح على الصليب، عندما كان يتعامل مع الخطيـــة أصلاً وفرعاً.

والمرة الثانية في رؤيا ٢١: ٦، وذلك بالارتباط بوصول الله إلى غايته من مشروع الفـــداء، فلقـــد تم إبطال كل الأعداء، وكان آخر عدو يُبطَل هو الموت. ولقد مضت الســـماء الأولـــى والأرض الأولى، وحل محلهما سماء جديدة وأرض جديدة. ولقد وصلت عروس المســـيح إلـــى عريســـها، وشاهد الرائي «مسكن الله مع الناس». بعد هذا كله قال الجالس على العرش: «قـــد تـــم». نعـــم سيُنهي الله حتماً ما قصده في الأزل، لكن في الصليب وضع المسيح الأساس الراسخ لهذا كله.

أيضاً قام كثير من أجساد القديسين الراقدين، معلنة نصرة المسيح على المـــوت، عدو البشرية الأول. فكأن الله لم يسمح أن يدخل المسيح إلى القبر إلا بعـــد أن يعلن أولاً نصرة المسيح على الموت وعلى القبر.

الأدلة القوية: وهي ليست أدلة في العالم الطبيعي، كعودة النـــور وتشـــقق الصخور وتفتح القبور، ولا هي أدلة في العالم غير المنظور، مثل دليـــل قيامـــة كثير من أجساد القديسين، بل إنه دليـــل فـــي العالم الروحي والدينـــي، إذ انشـــق حجـــاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل. ويا لـــه من دليل قوي! فذلك الحجاب، الـــذي كـــان طوال العهد الأول يعلـــن لكـــل مـــن يريـــد الاقتراب إلى الله أنْ "ممنوع الدخـــول"، قـــد انشق إلى اثنين مُعلناً ترحيـــب الله بالخـــاطئ التائب، فإذ كُمِّل رئيس خلاصنا بـــالآلام فقـــد أمكن أن يأتي الله بأبناء كثيرين إلى محضره.

ذلك الحجاب، الذي كان طوال العهد الأول يعلن لكل من يريد الاقتراب إلى الله أنْ "ممنوع الدخول"، قد انشق إلى اثنين مُعلناً ترحيب الله بالخاطئ التائب، فإذ كُمِّل رئيس خلاصنا بالآلام فقد أمكن أن يأتي الله بأبناء كثيرين إلى محضره.

الأدلة الأبدية: وهي بكل يقين أقوى هـــذه الأدلة جميعها، وأعني بها قيامة المســـيح مـــن الأموات في اليوم الثالث. إن هذه القيامة تعلـــن أن الله قَبِل المسيح وارتضى بعمله؛ وإلا فكيف قام المسيح مـــن الأمـــوات لـــو أن المسيح لم يكن قد أوفى كل الدين؟

وليس فقط قام المسيح من الأموات، بل إنه صعد إلى الســـماء، وتمجـــد إذ جلس عن يمين الله في الأعالي، ومن هناك أرسل الروح القـــدس إلـــى العـــالم ليسكن في قلوب المؤمنين به.

ثالثاً: مضمون كمال عمل المسيح

دعنا الآن – بشيء من التفصيل – نتأمل في مضمون كمال عمل المسيح من فوق الصليب. أو – بكلمات أخرى – دعنا نتأمل في ما هو الذي أكمله المسيح من فوق الصليب، ولنتتبع ذلك في السباعية التالية:

الأمر الأول: إتمام مشيئة الله

إن أول شيء أكمله المسيح من فوق الصليب هو **مشيئة الله**. فلقد قام – تبارك اسمه – بتنفيذ خطة الله الأزلية ومقاصد نعمته من نحو الإنسان المسكين الخاطئ.

يقول الرسول بولس «لأن مهما كانت مواعيد الله، فهو (أي المسيح) فيه النَّعم، وفيه الآمين، لمجد الله، بواسطتنا» (٢كو١: ٢٠). هذه الآية معناها أنه مهما أراد الله أن يعمله تجاهنا، ومهما كانت مواعيد الله من نحونا، فإن المسيح من جانبه يقول نعم، فالمسيح لا يقول مطلقاً «صَعُبَتْ السؤال» مهما عظم الطلب أو ارتفع إلى فوق. في الأزل، قبل خلق العالمين، قال المسيح لأبيه "نعم"، «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررتُ». ومن ثم فقد أتى إلى العالم ليفعل مشيئة الله، وليفعلها بسرور. لكن لنلاحظ أنه ليس فقط فيه النَّعم، لأننا نحن أيضاً قد نقول "نعم" في بعض الأحيان، دون أن نفعل شيئاً. مثل ذلك الابن الذي حدثنا عنه المسيح في متى ٢١: ٣٠، الذي قال له أبوه «اذهب اليوم اعمل في كرمي»، أجابه الابن «ها أنا»، لكن لم يعمل شيئاً. أما المسيح فليس هكذا، بل إنه عندما يتسلم الأمر تكون إجابته "نعم، أنا مستعد للقيام بالمأمورية"، ثم يقوم بالتنفيذ، ولا يهدأ حتى يتمم الأمر، وعندئذ يقول "آمين". إنه هو الذي

جاءت عنه النبوة في إشعياء ٥٣: ١٠ «ومسرة الرب بيده تنجح». ولهذا فها المسيح من فوق الصليب يقدم التقرير «قد أُكمِل». وكأنه يقول "إن ما قصدتَه أيها الآب لي في الأزل كي أفعله، والذي أعلنتُ من فوق الجبل المقدس وأنا مع موسى وإيليا أني سأكمله (لو٩: ٣٠،٣١)، كما أكدتُ في بستان جثسيماني كامل استعدادي لإتمامه (يو١٨: ١١)، ها أنا قد فعلته وأكملته".

ما أبعد الفارق بين ربنا يسوع المسيح والإنسان الأول آدم، فبينما فشل الإنسان الأول في تنفيذ مشيئة الله في وصية واحدة سهلة، فإن المسيح، الإنسان الثاني، كان سروره أن يفعل مشيئة الله حتى إلى الموت!

لقد سبق أن كُلِّفَ المسيح مأمورية الخلق، فخلق الكل، كما يخبرنا تكوين ١. وفي تكوين ٢ يقول الوحي: «أُكمِلَت السماوات والأرض». «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً»، ثم «استراح الله»، بمعنى: سُرَّ وابتهج بما فعله. لكن من تكوين ٢:٢ حتى يوحنا ١٩: ٣٠ لا نقرأ مطلقاً عن عمل كامل. فأعمال كثيرة عملها البشر لا يُقال عنها مطلقاً إنها كاملة. فكم من أعمال بدأها البشر ولم يكملوها، أو بدأوها حسناً وأنهوها سيئاً. هناك من بدأ في بناء برج ولم يقدر أن يكمله. لكن المسيح ليس هكذا، فلقد قال «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو٤: ٣٤).

لقد قَبِلَ – له المجد – أن يموت لأجلنا، و«بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المُقدَّسين» (عب١٠: ١٤). ولو كانت مشيئة الله هلاكنا فما كان أسهل ذلك بالنسبة لله. لكن مجداً لله، لأن مشيئته كانت فداءنا من الهلاك على أساس من العدل، فجاء المسيح وأكمل العمل. وعندما دخل المسيح إلى العالم كان في تمام العلم بما كان حتماً عليه أن يعمله، ولذلك فقد قال «هنذا أجيء لأفعل مشيئتك يا الله» (انظر عب١٠: ٥-٩). وها هو الآن عند خروجه من العالم يعلن، من فوق

الصليب، أنه قد أكمل العمل ونفَّذ مشيئة الله في خلاصنـــا. لقـد ذكـر قبـلاً أن طعامه هو أن يعمل مشيئة الذي أرسله ويتمم عمله، وها هو قد عمل تلك المشـيئة وأتمَّها، فما أسعده بهذا! لقد شبع بهذا كل الشبع، وبلغة الرمـز: «أكـل وشـرب وطاب قلبه، ودخل ليضطجع في طرف العرمة» (را ٣:٧). فله كل المجد.

الأمر الثاني: إعلان الله وصفاته

فهذه العبارة العظيمة، موضوع دراستنا وتأملنـا الآن، وردت فـي إنجيـل واحد من الأناجيل الأربعة، هو إنجيل يوحنا. وإنجيل يوحنا يتميز عـن بـاقي الأناجيل في أنه يُركِّز الحديث على لاهوت المسيح، فيقول عنه – من بدايتـه – إنه الكلمة الأزلي الخالق، والابن الوحيد، وحيـد الآب. مكتـوب فـي يوحنـا ١٨:١ «الله لم يره أحد قـط، الابـن الوحيـد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر».

> بموت الصليب، أعلن المسيح لنا محبة الله، وكل صفاته. ولهذا أمكنه من فوق الصليب أن يقول قد أكمل. لقد أكمل الفرض العظيم لمجيئه، وهو أن يظهر اسم الآب للناس، ويخبرنا عن الله.

مَنْ منْ الأنبياء أمكنه أن يعلن الآب؟ لا أحـد أمكنـه أن يعلنـه، ولا حتـى أن يـراه. لا موسى، ولا إيليا، ولا أي واحد من قديسـي أو أنبياء العهد القديم، بل إنَّ من أعلن الآب لنـا هو ابن الله الوحيد، ابن محبته. لولا المسـيح لظلَّ الله بالنسبة لنـا يسـكن فـي الضبـاب (١مل٨:١٢) بحسب تعبير الملك سليمان، ومـا كان لأحد من البشر أن يعرف مَـن هـو الله بالحقيقة. عندما تجاسر موسى وطلب إلى الله أن يريـه مجـده قـال لـه الله «الإنسان لا يراني ويعيش» (خر٣٣:٢٠). أما بالنسبة لنا، فما كـان مسـتحيلاً على موسى نفسه، وعلى كل مؤمني العهد القديم، صار ممكناً لنا، كقول الكتـاب

«الله الذي قال أن يشرق نورٌ من ظلمةٍ، هو الذي أشرق في قلوبنا، لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (٢كو٤:٦). ولمّا قال فيلبس للمسيح «أرِنا الآب وكفانا» أجابه المسيح «أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس. الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤:٨، ٩)، وذلك لأنه «هو صورة الله غير المنظور» (كو١:١٥).

لكن لكي تظهر محبة الله في كل قوتها ووضوحها كان الأمر يتطلب – لا حياة المسيح فقط – بل موته لأجلنا أيضاً. مكتوب «الله بيَّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو٥:٨). ويقول الرسول يوحنا «بهذا أُظهِرت محبة الله فينا (تجاهنا): أنَّ الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (١يو٤:٩).

بهذا العمل، أعني موت الصليب، أعلن المسيحُ لنا محبةَ الله، وكلَّ صفاته. ولهذا أمكنه من فوق الصليب أن يقول «قد أُكمِل». لقد أكمل الغرض العظيم لمجيئه، وهو أن يُظهِر اسمَ الآب للناس، ويخبرنا عن الله.

ولهذا فإنه يمكننا أن نقول إنه بغير المسيح لا يمكن لأحد أن يعرف الله. قد يعرف الإنسان عن الله أشياء، أمَّا أن يعرف الله شخصياً فإنه مستحيل تماماً بغير المسيح، لأن المسيح هو كلمة الله، والكلمة لغةً هي التي تعبر عن الشخص. فالمُعبِّر عن الله هو المسيح، لهذا قال المسيح «أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو١٤:٦). بل إني أقول أيضاً إنه بدون الصليب لا توجد معرفة حقيقية لله. فكيف يمكن للخاطئ الأثيم أن يلتقي الله الكلي القداسة؟ إما أن يلتقي الإنسان الخاطئ اللهَ القدوس عند صليب ربنا يسوع المسيح، فينعم بالغفران والمُصالحة، وإما أن يلتقي الله أمام العرش العظيم الأبيض لكي يدينه على أساس العدل. وفي الحالتين يكون

الالتقاء مع المسيح. فالمسيح هو اليوم المخلِّص، وليس بأحد غـــيره الخـــلاص (أع٤:١٢)، وهو غداً الديان، والآب قد أعطى كل الدينونة للابـــن (يـــو٥:٢٢). أنه يُخلِّص كلَّ نفس تأتي إليه اليوم، وسيدين كل نفس تأبى ذلك، غداً.

الأمر الثالث: إكمال النصرة على كل الأعداء

فهمنا أن صرخة المسيح "تيتيليستاي" هي صرخـــة القـــائد الـــذي أحـــرز الانتصار. فلقد كانت هناك معركة حقيقية في الصليب، هي معركـــة الدهـــور العُظمى، المعركة التي كانت موقعتها الأولى في الجنة عندمـــا هـــزم الشـــيطان أبانا الأول آدم وقاده إلى عصيان الله، فطُرد الإنسان من الجنة. لكن ها قد أتـــى الإنسان الثاني، الرب يسوع المسيح، ودخل المعركة إنساناً، ولحساب الإنســـان، وهزم الشيطان لحسابنا، فهو المُتَنَبَّأ عنه في الجنة بأنه نسل المرأة الذي يســـحق رأس الحية (تك٣:١٥). ولهذا فقد جاء المسيح باعتباره نسل المرأة، وولِدَ مـــن العذراء مريم. وفي الجلجثة استطاع أن يسحق رأس الحية تتميماً للقول «هـــو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه». فها ابن الله تغطيه الجراح، وها هو فـــي طريقه لأن يسكب للموت نفسه، لكنه قَبِلَ الموت طوعاً لكي يبيـــد بـــالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس. وفيه تمت كلمـــات الرســـول أنـــه «جـــرَّد الرياسات والسلاطين (أي قوى الشيطان كلها) أشهرهم جهاراً ظافراً بـــهم فيـــه (أي في الصليب)» (كو٢:١٥).

إذاً فنحن أيضاً، مع أحد الشيوخ المذكورين في سفر الرؤيا، نقول «قد غلـــب الأسد الذي من سبط يهوذا» (رؤ٥:٥). وعندما قال المسيح «قد أُكمِل» كان بـــهذا يهتف هتاف الانتصار، عكس ما يبدو للعيان في ذلك اليوم. فمع أن الشيطان بـــدا وكأنه في قمة نصرته عند الصليب، فإن الصليب كان لإبادته تماماً.

والخصـــمُ قـــد ظـــنَّ بأنـــــه ظَفَـــــرْ
إذ دُفِـنَ الـربُّ يســـوع وخُتِـــمَ الحجـــرْ

فخـــابتِ الآمـــــالْ فـــي ظـــاهر الأمـــر
لكـــن رئيـــسَ الحيـــاة قـــامَ مـــن القـــبرِ

صحيح أنه إلى الآن لم تتم إبادة الشيطان، فما زالت حكمة الله ترى الإبقـــاء عليه، وما زال هناك استخدام له، لكن صحيح أيضاً أن المسيح في الصليب قـــد وضع أساس إبادته، كما هو مكتوب «لكي يبيد بالموت ذاك الذي لـــه ســـلطان الموت؛ أي إبليس» (عب٢:١٤).

الأمر الرابع: إكمال الناموس ومطاليبه

لقد قال المسيح في عظته الشهيرة من فوق الجبل «لا تظنـــوا أنـــي جئـــت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل» (مت٥:١٧). ونحـــن لا نفهم من هذه الآية أن المسيح أتى ليكمل الناموس بمعنـــى أن يضيـــف إليـــه بعض الإضافات، وكأن الناموس كان ناقصاً، حاشا! فداود النبي، في المزمـــور ١٩، يقول «ناموس الرب كامل». وحاشـــا أن يقصـــد المســـيح أن النـــاموس ناقص، كلا! فالمسيح أتى، لا ليضيف شيئاً إلى الناموس، بل لكي يتمـــم حكـــم الناموس ويكمل مطاليبه العادلة. فلقد أعلن الناموس أن المذنب يجب أن يُـــدان، وأن الله لا يمكن أن يبرر الأثيم، فأتى المسيح ليخلِّصنا، لكن ليس علـــى أســـاس نقض الناموس، بل على أساس أن يدفع هو بنفسه عقوبة الخطية حسب نـــاموس الله. الناموس كان يُوجِب اللعنة على كل من لا يعمل به، فأتى المسيح ليمـــوت فوق الصليب موت اللعنة، ليحمل عن مفديه اللعنة التي كانوا عدلاً يســـتحقونها، كقول الرسول «المسيح افتدانا من لعنـــة النـــاموس إذ صـــار لعنـــة لأجلنـــا»

(غل٣:١٣). الناموس كان يعلن أن الإنسان محتاج إلى ذبيحة لتفديه، فأتى المسيح ليكون هو بنفسه تلك الذبيحة. نعم، بهذا المعنى أتى المسيح ليكمل الناموس. وهو إذ صار الذبيحة، واحتمل اللعنة، ودفع أجرة الخطية، فها هو من فوق الصليب يقول «قد أُكمِل».

تفكَّر – عزيزي القارئ – في تلك الذبائح التي كانت تُقدَّم حسب الناموس. ما أغزر أنهار الدماء التي سالت من الذبائح قديماً، بدءاً من الذبيحة التي قدمها الله في الجنة، مروراً بكل الذبائح التي قُدِّمت قبل الناموس، ثم تضاعفت مئات المرات في عهد الناموس «لأن بالناموس معرفة الخطية» (رو٣:٢٠). نعم، تفكَّر في الرموز المتنوعة: بدءاً من البقرة الحمراء، وثور الخطية، منتهياً بالحمام واليمام، وبالعصفور المذبوح (لا ١٤)، بل أيضاً بقربان الدقيق وسكيب الخمر. ثيرانٌ ذُبِحَت، وكباشٌ نُحِرَت. أمَا كان من نهاية لهذا كله؟! مُحال، فإن ذبائح الناموس ما كانت تمنح مُقدِّمها سوى راحة موقَّتة* للضمير. يقول الوحي المقدس «لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا» (عب١٠:٤)، إلى أن جاء المسيح رئيس كهنة الخيرات العتيدة، ذاك الذي أُظهِر مرَّة عند انقضاء الدهور ليبطل الخطية بذبيحة نفسه (عب٩:١١،٢٦).

إن مجيء المسيح، وموته فوق الصليب باعتباره الذبيحة الواحدة الكاملة الحقيقية أنهيا ذلك النظام القديم تماماً. واسمع ما يقوله الكتاب المقدس عن ذلك «عند دخوله إلى العالم (أي المسيح) يقول ذبيحة وقرباناً لم تُرِد، ولكن هيأتَ لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرَّ. ثم قلتُ هنذا أجيء، في درج الكتاب

---

* نلاحظ أن خيمة الاجتماع لم يكن فيها كرسي ليجلس عليه الكهنة، ذلك لأن العمل لم يكن قد اكتمل، كقول الوحي «كل كاهن يقوم كل يوم يخدم ويقدم مراراً كثيرة تلك الذبائح عينها التي لا «تستطيع البتة أن تنزع الخطية. وأما هذا (المسيح) فبعد ما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة، جلس إلى الأبد عن يمين الله» (عب١٠: ١١،١٢).

مكتوب عني، لأفعل مشيئتك يا الله» (عب١٠:٥-٧). ويُعلِّق الرسول على ذلك قائلاً «ينزع الأول لكي يُثبِّت الثاني». فلقد نزع الله العهد الأول، والنظام الأول بذبائحه الدموية التي لم تكن تكفر عن الخطية قط، لكي يثبِّت الثاني: أي يثبت العهد الجديد. نعم، إن ذبيحة المسيح على الصليب أنهت النظام القديم بذبائحه التي كانت موضوعة فقط لوقت الإصلاح، وعهد الرموز اضمحل إلى الأبد. ولهذا كانت صرخة المسيح الرائعة من فوق الصليب «قد أُكمِل».

ما أعظم صرخة المسيح هذه! إنها تعني أنه قد وفّى الدَين كله، وحمل اللعنة كاملة، وشرب كأس الدينونة حتى آخرها دون أن يُبقِي لنا قطرة واحدة منها. والويل لنا ألف مرة لو لم يقل المسيح «قد أُكمِل»، أو لو كان المسيح أبقى لنا ولو مثقال ذرة مِن الدَين لنوفيه نحن، أو لو حمل كل خطايانا وترك واحدة فقط لنتولى نحن التكفير عنها بأنفسنا؛ إذاً لتعيَّن علينا أبدية لا تنتهي في جهنم بلا أدنى أمل في الخروج، ولَمَا كان يمكننا أن نقول في يوم من الأيام هذه العبارة «قد أُكمل». أما الآن وقد قال المسيح بديلنا المبارك «قد أُكمِل» فهذا معناه أنه قد قضى عنا إلى الأبد، وأنه وفى الدين كله، ولم يُبق علينا فلساً واحداً لنوفيه نحن.

> **ضعوا سيوفكم النارية في الغمد يا كروبيم السماء، وليصمت قصيف رعودك المرعبة أيها الناموس العادل، فلقد وفى ديني كله الحمل، ومن فوق الصليب قال بديلنا المبارك قد أكمِل.**

ضعوا سيوفكم النارية في الغمد يا كروبيم السماء، وليصمت قصيف رعودك المرعبة أيها الناموس العادل، فلقد وفى ديني كله الحمل، ومن فوق الصليب قال بديلنا المبارك «قد أُكمِل».

الأمر الخامس: أكمل النبوات

فكما أكمل المسيح الناموس بكل رموزه وطقوسه، هكذا أيضاً أكمل النبـــوات. فهناك مئات النبوات في أسفار العهد القديم تجمَّعت كلها لتجد تتميمها بكل دقة فـــي شخص واحد فقط. فمن يكون هذا الشخص سوى مسيح الله ورجل مشوراته.

لو حاول أحد أن يُخرِج المسيح من الكتاب المقدس، لَمَا بقي فيه بعـــد ذلـك إلا طقوس عقيمة لا معنى لها. وأمَّا النبوات العديـــدة التـــي تُحدثنـــا عـــن أمـــل البشرية ومُشتهى كل الأمم فكانت إذ ذاك ستشير إلى لا شيء، أو بـــالحري إلـــى شخص ليس له وجود. أما الآن فهي تشير إليه وتتحدث عنه. فلقد أتـــى المســـيح إلى العالم، ومضى إلى الصليب، فأصبحت كل الرموز والطقوس والنبـــوات لـــها معناها المفهوم والواضح. يقول الكتاب المقدس «شهادة يسوع هي روح النبـــوة» (رؤ١٩: ١٠)، بمعنى أن شهادة المسيح بالنســـبة للنبـــوة هـــي روحـــها. لولاهـــا لأصبحت النبوة جسداً بلا روح. ولهذا فإن من يقرأ أسفار التوراة دون أن يكـــون نصب عينيه أنها كلها تتحدث عن المسيح فإنه لن يفهم منها شيئاً علـــى الإطـــلاق، وتصبح مجرد روايات وقصص، حتى لو كانت أحسن القصص.

حقاً ما أكثر النبوات التي قيلت عن المسيح، بدءاً من تلك التي قيلـــت فـــي الجنة (تك٣: ١٥)، مروراً بالتي قيلت قبل الناموس (تـــك٢٢: ١٨؛ غـــل٣: ١٦)، ثم تلك التي قيلت في الأرض أو في السبي، بجوار نهر الأردن أو نهر خـــابور. إن موسى وإيليا وهما فوق الجبل المقدس مع المسيح كأنهما يقـــولان: "أخـــيراً فهمنا ليس فقط معنى الرموز الكثيرة في الناموس، بل أيضاً إلـــى مَـــن كـــانت تشير أقوال النبوات العديدة، عرفنا عمن تكلم الأنبياء: فحقاً ليس عن أنفسهم هـــم جميعاً تكلموا، بل عن واحد آخر" (أع٨: ٣٤).

ثم لاحظ توقيت النطق بتلك العبارة «قد أُكمِل» كما أوضحـــه لنـــا البشـــير

يوحنا، إذ يقول: «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال: أنا عطشان». لقد مرَّ المسيح بذهنه على مئات النبوات ليرى هل بقي شيء منها غير متمم؟ فرأى نبوة واحدة صغيرة ينبغي أن تتم قبل أن يُسلِمَ الروح، فلا يمكن أن تسقط كلمة واحدة، حتى لو بدت في نظر الناس غير مهمة. ولمَّا شرب الخل قال «قد أُكمِل». فالرب – له المجد – لم ينطق بكلمة «قد أُكمِل» إلا بعد أن تمَّم كل النبوات عن آلامه. وهكذا لم تسقط كلمة واحدة من جميع ما تكلم به الأنبياء بالروح القدس، بل تمت النبوات جميعها بكل دقة (أع٣:١٨؛ ٤:٢٨؛ ١٣:٢٧،٢٩).

ويعوزنا الوقت لنمر على نبوات العهد القديم التي تمت في المسيح؛ مثل ولادته من عذراء (إش٧:١٤؛ مت١:١٨)، وولادته في بيت لحم (مي٥:٢؛ مت٢:٦)، ثم الهرب به إلى مصر (هو١١:١؛ مت٢:١٣-١٥)، ويوحنا المعمدان مُهيِيء الطريق قدامه (إش٤٠:٣؛ مر١:٢،٣)، وآيات وعجائب نعمته (إش٣٥:٥،٦)، وعيشته كفقير ومسكين (مز٤٠:١٧)، وأسلوب كلامه بأمثال (مز٧٨:٢؛ مت١٣:٣٤،٣٥)، واحتقار الناس له (إش٥٣:٣؛ يو٦:٤٢؛ ٧:٢٠؛ ٨:٤٨)، ورفضه من قِبَلِ أمّته واخوته (مز٦٩:٨؛ يو١:١١)، وخيانة أحد تلاميذه له (مز٤١:٩؛ يو١٣:١٨)، وأنه سيُساق كشاة إلى الذبح (إش٥٣:٧؛ أع٨:٣٢-٣٥)، حتى نصل إلى آخر نبوة تممها قبل أن يقول «قد أُكمِل»، عندما في عطشه سقوه خلاً (مز٦٩:٢١). هذه والكثير جداً غيرها نبوات تمت عنه وفيه.

بوسعنا الآن إذاً، أن نقول كما قال الرسول بطرس «إننا لم نتبع خرافات مُصنَّعة». من ثَمَّ قال «وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبت (أو وقد تثبتت)» (٢بط١:١٦،١٩)، فتتميم النبوات جعل موضوع الإيمان أكثر ثباتاً.

الأمر السادس: أكمل المسيح مسيرة الاتضاع

ما أعظم هذا المفهوم لذلك النطق العظيم «قد أُكمِل». فلقد قاله المسيح بعد أن قال أنا عطشان، فسقوه الخل. وبهذا الأمر أكمل المسيح رحلة التعب والاتضاع في عالم الخطية والضياع، الرحلة التي امتدت إلى أكثر من ثلاث وثلاثين سنة، فيها ذاق من الهوان والفقر ما لم يذُقه سواه. فلقد وصل فقره – تبارك اسمه – إلى أبعد حد: إلى حد العطش، وعدم إمكانه شرب الماء. والواقع كم كان مسار المسيح في هذا العالم أنموذجاً عجيباً وفريداً في الاتضاع والفقر. لقد قال مرة «للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه» (مت٨: ٢٠)، لكنه أخيراً بعد أن شرب الخل قال: قد أكمل، ونكس رأسه: أسنده على الصليب!

أرأيت – عزيزي القارئ – طريقاً للاتضاع والفقر مثل هذا؟ إنه طريق عجيب من المجد إلى المهد. لكن أيُّ مهدٍ؟ لقد كان مهده مذوداً للبهائم! فذاك الذي سماء السماوات لا تسع مجده، لم يكن له موضع في المنزل. نعم، يا لطول الطريق، ويا لبعد المسافة من ذُرى المجد إلى نظير هذا المهد! ثم يا لهول الطريق ومشقته من المهد إلى الصلب واللحد، في أرض لا تُنبِت سوى الشوك والحسك. اسمع ما يقوله الوحي عن ذلك الطريق العجيب «الذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه، آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وُجِد في الهيئة كإنسان، وَضَع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب» ، أي وصل إلى أدنى أنواع الموت وأسوإها، موت العار والاحتقار، الموت تحت لعنة الناموس. لكن ماذا بعد موت الصليب؟ هل مِنْ اتضاع أبعد من موت الصليب؟ كلا. وها المسيح هنا قَبْل أن يسند رأسه ويسلم الروح يقول «قد أُكمِل» . لقد أكمل مسيرة الاتضاع

والفقر، ليبدأ من تلك اللحظة مسيرة أخرى مختلفة في كل شيء، هـــي مســيرة الرفعة، فيقول الكتاب المقدس «لذلك رفَّعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فـــوق كـــل اسم، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومَن على الأرض ومَـــن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب» (في ٢:٦-١١).

نعم، لقد أُكمِلت بالنسبة للمسيح مسيرة الاتضاع والفقـــر بعـــد أن عطـــش وشرب الخل. وهو لن يعطش في مـــا بعـــد، ولن يجوع. قبل أن يبـــدأ المســـيح رحلتـــه الأخيرة إلى المحاكمـــات والصليـــب، ذكـــر الروح القدس أن يسوع وهو عالم أن ســـاعته قد جاءت لينتقل من هـــذا العـــالم إلـــى الآب (يو١٣:١)، وكم كان سرور المسيح عظيمـــاً أن يـــترك العـــالم ويذهـــب إلـــى الآب (يو١٦:٢٨). ألم يقُل لتلاميذه فـــي حديـــث الوداع الأخير «لـــو كنتـــم تحبوننـــي لكنتـــم تفرحون لأني قلت أمضي إلى الآب، لأن أبـــي أعظم مني» (يو١٤:٢٨). وها هو هنا يعلن «قد أُكمِل»، وبعدها مباشرة قـــال: «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي» (لو٢٣:٤٦).

> لقد انتهت بالصليب مسيرة تواضع المسيح وخزيه. لن يراه العالم في ما بعد كما رآه سابقاً محتقراً ومخذولاً من الناس، بل إن الناس الأشرار لن يروه حتى يأتي في قوة ومجد كثير.

هذا التغيير الكلي والانتقال المفاجئ في المسيرتين نجده مذكوراً بوضـــوح في آخر المزمور١٠٩، مقارنةً ببداية المزمور١١٠. ففي آخر المزمـور١٠٩، نجده كالإنسان المسكين، أما في بداية المزمور١١٠، فنراه الرب المُمَجَّد حيـث نقرأ القول «قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضـــع أعـــداءك موطئـــاً لقدميك». نعم، لقد انتهت بالصليب مسيرة تواضع المسيح وخزيه. لن يـــراه

العالم في ما بعد كما رآه سابقاً مُحتَقَراً ومخذولاً من الناس، ولن يكون وجهه كذا مفسداً أكثر من الرجل وصورته أكثر من بني آدم، بل إن الناس الأشرار لن يروه حتى يأتي في قوة ومجد كثير. فالمسيح بعد القيامة لم يَرَه أحد من الأعداء أو الأشرار قط، مع أنه أظهر نفسه مرات لقديسيه. ولن يراه الأعداء حتى يأتي في نار لهيب معطياً نقمة للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح. عندئذ سيهرب الأشرار من حضرته قائلين للجبال والصخور: اسقطي علينا واخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف. وبعد ذلك من وجهه أيضاً ستهرب الأرض والسماء ولن يوجد لهما موضع (رؤ٦:١٦؛ ٢٠:١١).

يقول الرسول «من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهيناً بالخزي» (عب١٢:٢). وهذا السرور الموضوع أمامه هو أن ينتقل من هذا العالم إلى الآب. وإن كان بولس في آخر حياته قدّم نفسه كالسكيب، وبفرح قال «أكملت السعي» (٢تي٤:٦،٧)، فكم بالحري المسيح هنا يسكب نفسه للموت، وعلى لسانه تلك العبارة الغالية «قد أُكمِل»؟

الأمر السابع: إكمال رحلة الألم

لكن المسيح لم يُنهِ فقط مسيرة الاتضاع والفقر، بل أنهى أيضاً طريق الألم. فليس أنه فقط كان يقصد بعبارته هذه إكمال العمل، بل إنه أكمل أيضاً رحلة الألم.

من البداية، كان – له المجد – يقول: «لي صبغة أصطبغها (مشيراً إلى آلام الصليب التي ستتخلل كل نفسه)، وكيف انحصر حتى تكمل(أو وكم أنا محصور حتى تكمل)» (لو١٢:٥٠). وما كان أقسى الآلام التي تعيَّن على ابن الله أن يحتملها لأجل خلاصنا. إنها الآلام التي كنا نستحقها نحن عدلاً أجرة لآثامنا وخطايانا، حملها هو بالنعمة نيابةً عنا، لأنه لاق بذاك (أي الله) الذي من

أجله الكل وبه الكل، أن يكمِّل رئيسَ خلاصنا بالآلام، كي ما يأتي بنا الله أبنـــاء كثيرين إلى المجد (عب٢:١٠).

والمسيح لم يتألم نوعاً واحداً من الآلام، بل تألم ظلمـاً وغـدراً علـى أيـدي البشر، وتألم حقداً وعدواناً على يد الشيطان، كما تألم عدلاً وبراً على يد الله. لكنـه إذ احتمل كل هذه الآلام، صار لجميع الذيـــن يطيعونـه سـبب خـلاص أبـدي (عب٥:٩). ولهذا جاءت صرخة المسيح «قد أُكمِل» مُعلنةً أنه احتمل الألم كلـــه. لقد أكمل طريق الألم، وشرب كأس الغضب حتى آخرها، من ثَمَّ قال «قد أُكمِل».

ولقد كانت هذه الصرخة فعلاً نهاية لرحلة الألم والمعاناة؛ فلم يُترك جســده بعدها نهباً للجوارح لتنقض عليه، ولا نهباً للعيون الفاسقة لتتفرس فيـــه. ولـم تُكسر ساقاه كما حدث مع المصلوبَين الآخرَين المصلوبَين معه، ولم يُدفَـن مـع الأشرار كما خططوا له وكما كان مُتوقعاً. نعم إنها صرخة أنهت كل المعانـــاة والألم بالنسبة لسيدنا لتبدأ مسيرة الإكرام والتقدير. فتمَّ فيه وعد الـــرب للتقـي «يحفظ جميع عظامه، واحد منها لا ينكسر» (مز٣٤:٢٠)، كما تمت فيه النبـــوة أنه سيُدفن «مع غنيٍّ عند موته» وذلك لأنه «لم يعمل ظُلماً ولم يكن فـــي فمـه غش» (إش٥٣:٩)، كما تمَّت فيه أيضاً النبوة «لن تترك نفسي في الهاوية. لـــن تدع تقيَّك يرى فساداً. تعرِّفني سبيل الحياة. أمامك شبع سرور. فـــي يمينـك نِعَمٌ إلى الأبد» (مز١٦:١٠،١١). وليس هذا بغريب، لأنه إن كان الله قد تمجـد فيه (بموته الكفاري على الصليب) فكان حتماً أن يمجده الله في ذاته ، ويمجـــده سريعاً (يو١٣:٣٢).

لقد سُحِقَ سيدنا في الصليب، وطمَت عليه كل تيارات ولجج الله وميـــازيب عدله، والتهمته نيران غضب الله، وضُرِب بســيف العــدل الرهيــب، والعــدل اكتفى، فماذا بقي؟ لا شيء، وها هو يقول «قد أُكمِل».

ما أروعَ العملَ الـــذي أكملتَـــهُ وبموتِكَ فوقَ الصليـــبِ ختمتَـــهُ
كلَّ النبواتِ وموسى وما كَتَـــبْ فـــي ســـفرِهِ داود قـــد أتممتَـــهُ
كُمِّلتَ بـــالألمِ فأُفسِـــدَ وجـــهكَ وعلى الجبينِ الغُرِّ خَطَّ خطوطَـــهُ
والآنَ فيكَ تمجدَ بـــل واكتمَـــلْ بصليبِـــكَ يـــا ســـيدي تمجيـــده

لك المجد يا ربنا! فآلام جهنم مُركَّزة تحملتها بالنيابة عنا. وأبْشِر يا أخـــي المؤمن، فطالما أن المسيح أكمل من فوق الصليب العمل لأجلنـــا محتمـــلاً الآلام الرهيبة فهو حتماً سيكمل العمل فينا. وإن كان هو قد أكمل الأصعب فهو حتمـــاً سيكمل الباقي وهو أسهل. والذي ذهب لأجلنا ذهابـــاً بالبكـــاء، حـــاملاً مِيـــذَر الزرع، لا بد أن يجيء مجيئاً بالترنم حاملاً حزمه. ثم إن كـــان المســـيح تـــألم لأجلنا ونحن خطاة، فبالأولى كثيراً وقد صرنا أحبـــاءه نخلـــص الآن بحياتـــه، ونخلص أيضاً به من الغضب الآتي عندما يأتي هو لأجلنا من الســـماء ليأخذنـــا إليه، وهكذا نكون كل حين مع الرب.

رابعاً: نتائج كمال عمل المسيح

وهي نتائج مزدوجة: بالنسبة للخطاة ، وبالنسبة للمؤمنين.

أولاً: بالنسبة للخطاة

أيها الصديق العزيز، لقد عمل المسيح عمل الفداء من فوق الصليب وأكملـــه، وليس ذلك فقط بل لقد أعلن ذلك بنفسه أيضاً، فوضع ختم المصادقة والكمال علـــى ما عمله تبارك اسمه. ولقد اكتفى الله حقاً بهذا العمل. ترى أتكتفي أنت بـــه؟ أم تريد أن تضيف عليه شيئاً من عندك؟ ليت روح الله يوضح لكل واحد من القـــراء

الأعزاء أن عمل المسيح العظيم والرائع لا ينبغي أن نضيف عليه أي شيء. لقد اكتفى الله. ولحظة تؤمن بالمسيح وبعمله الكامل لأجلك على الصليب تنتقل من الموت إلى الحياة، وتتنعم بكل بركات الفداء.

لقد مضى المسيح إلى الصليب ليجهز لنا بموته وليمة النعمة الغنية. وها بشارة الإنجيل تقول «**تعالوا لأن كل شيء قد أُعِدَّ**». فلماذا لا تأتي؟ ولماذا تبقى بعيداً؟

والشيء الجميل أن المسيح لم يكمل هذا العمل فقط، بل أعلن ذلك بنفسه أيضاً. فأُبَشِّر يا أخي: لقد اكتفى الله حقاً بهذا العمل. ويا لها من راحة عظمى لقلب المؤمن، فعمل الإنسان مهما كان هو أبعد ما يكون عن الكمال، أما عمل المسيح الذي عمله من فوق الصليب فهو حقاً عمل كامل.

الشيء الجميل أن المسيح لم يكمل هذا العمل فقط، بل أعلن ذلك بنفسه أيضاً. فأُبَشِّر يا أخي: لقد اكتفى الله حقاً بهذا العمل. ويا لها من راحة عظمى لقلب المؤمن.

يا من تعذبون أجسادكم للتكفير عن نفوسكم، كفوا عن محاولاتكم هذه، فكل شيء قد أُعِدَّ. يا من تظنون أن صلواتكم وعهودكم، وذهابكم إلى أماكن العبادة يمكن أن تضيف إلى عمل المسيح أي قيمة، أنتم مخطئون بشدة، فالمسيح قال «قد أُكمل». يا من تسأل «ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص؟» تعالَ كما أنت، فالمسيح قد أكمل العمل. يا من تشعر باليأس من أن ترضي الله أو أن تهرب من الخطية وعقابها الأبدي، تعالَ سريعاً ولا تؤجل فمن فوق الصليب قال المسيح كلمته العظيمة والرائعة «قد أُكمل».

ثانياً بالنسبة للمؤمنين

أما بالنسبة للمؤمنين، فكلمتي إليكم مزدوجة: ابدأها بمسئوليتكم وأختمها

بامتيازاتكم. ما أكبر المسئولية التي علينا في أن نعلن أخبار هذا العمل العظيم. لقد أعطانا الله خدمة المصالحة، أن نقول للناس: تصالحوا مع الله لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن بر الله فيه. فهل نعي المسئولية الجسيمة الملقاة على أعناقنا؟ لقد قام بها الرسل والمؤمنون الأوائل كما نقرأ في سفر الأعمال، فهل نحن أيضاً نفعل ذلك؟

لكن أيها المؤمن العزيز أقول لتعزيتك إن الله الذي عمل لأجلك عملاً كاملاً، سوف يعمل فيك عملاً كاملاً أيضاً. وكما بدأ فيك عملاً صالحاً، لا بد أنه سوف يكمل. لقد عمل الجزء الأصعب، أفلا يتمم العمل؟ إن الرجل لا يهدأ حتى يتمم الأمر اليوم!

العبارة السابعة من فوق الصليب

كلمات التسليم

ونادى يسوع بصوتٍ عظيمٍ وقال:

يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي

(لو ٢٣:٤٦)

هذه هي آخر العبارات السبع التي نطق بها الرب يسوع من فوق الصليب، وأَخِر نُطق له قبل أن يسلم الروح. ونحن نعرف كم تكون الكلمات الأخيرة للشخص عند الاحتضار ذات قيمة خاصة ومدلول هام.

وقبل التحدث عما نتعلمه من هذه العبارة، نذكِّر القارئ بأن عبارات المسيح الأربع الأخيرة من فوق الصليب قيلت كلها في آخر ساعات الصلب الست، وقبيل موت المسيح مباشرة، كما أنه يجمعها معاً ارتباط عجيب في ثنائيتين. فصرخة الهجر (العبارة الرابعة) جاءت لأن الله ترك المسيح بسبب صيرورته في ساعات الظلمة نبيحة خطية، فجاءت العبارة الخامسة تُعبِّر عن أشواق المسيح إلى الله. ثم عبّرت صرخة الانتصار (العبارة السادسة) عن إكمال المسيح للعمل الذس سلّمه إياه الله، فجاءت الصرخة التالية والأخيرة وفيها يُسلِّم هو روحه في يدَي الآب!

«**يا أبتاه، في يديك أستودع روحي**». أول ما يلفت نظرنا في هذه العبارة أنَّ المسيح وجَّهها لأبيه. والمسيح من فوق الصليب وجَّه عباراته التي نطق بها إلى أشخاص عديدين؛ فعبارة منها وجَّهها إلى أمه ليُرتِّب أمورها الزمنية وأين تكون بعد موته، وعبارة أخرى وجَّهها إلى لص تائب ليُرتِّب أموره الأبدية، وأين سيكون بعد موته هو. وعبارة ثالثة وجَّهها إلى الله الديان من أعماق الحزن والألم قائلاً «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟» كما أنه وجَّه صرخة لِكل مَن له أذن

للسمع قائلاً: «أنا عطشان». ثم وجَّه عبارة أخرى إلى كل مَن يهمهم الأمر بأنه من فوق الصليب قد أكمل العمل. لكن عبارتيه الأولى والأخيرة من بين عباراته السبع من فوق الصليب كانتا صلاتين لأبيه، بدأ كلتيهما بالقول «يا أبتاه».

ولأن هذه العبارة – كما أسلفنا – هي آخر عبارة للمسيح قبل موته، فإنَّ هذا يقودنا إلى التأمل في موت المسيح، ونتأمله من زاويتين:

أولاً: هو موت ما أصعبه!

ثانياً: هو موت ما أروعه!

أولاً: ما أصعب موت المسيح!

لقد كانت حياة المسيح سلسلة متصلة من الآلام والأحزان، فقيل عنه بحق «رجل أوجاع ومختبر الحزن» (إش ٥٣:٣). لكن الأوجاع الثقيلة والحزن المذيب كانت هناك فوق الصليب. مَن فينا يقدر أن يعرف ما تحمله بديلنا الكريم عندما كان مُعلَّقاً لأجلنا في الجلجثة؟ في الثلاث ساعات الأولى، تألم على يد الشيطان وعلى يد الإنسان، أما في الثلاث الساعات الأخيرة فقد تألم – بوصفه حامل الخطايا – على يد الله الديان. في أثنائها ضُرب الراعي رفيق رب الجنود من الرب نفسه، وتحمَّل الضربة كاملة، وشرب كأس الغضب حتى نهايتها، وقال «قد أُكمِل».

والآن دعنا نقترب من مشهد الموت نفسه. والموت بالنسبة للإنسان – بصفة عامة – هو أرهب المناظر جميعها وأفظعها. إنه كما نعلم عدو البشرية الأول. فكيف كان هذا المشهد بالنسبة للمسيح يا تُرى؟

ارفعي عينيك يا نفسي وشاهدي ربك فوق الصليب. تأملي فراش الموت

الذي أُعِدَّ له. أكان فراشاً قشيباً؟ آه، ما أرهب ذلك المنظـــر! أيـــن أحبـــاؤه، ومريدوه، وتلاميذه؟ من كان منهم هناك ليجفف عرقه، وليوقف نـــزف دمـــه؟ من كان هناك ليشجعه ويواسيه، وليتصرف معه تصرفاً واحداً رقيقاً ينعش قلبـــه ويشجع روحه؟ مَن كان هناك ليقدّم له الماء قبيل موته لمَّا قال «أنا عطشان»؟

آه يا سيدي، مَن ودَّع الحياة وحيداً تغطيه الظلال القاتمة كتلك الظلال التـــي أحاطت بمشهد موتك؟

لكن أرجو – عزيزي القارئ – ألا تخطئ الظن. فلم يكـــن هـــذا هزيمـــة للمسيح كأنه أُجبِر على ذلك جبراً. كلا، بل كان عمل تضحية رائعة، نابعة مـــن قلب أحب بلا حدود. فهو – تبارك اسمه – ما كان ليخضع للمـــوت نظيرنـــا، لكنه أذعن له بمطلق إرادته، وبموته كسر شوكة الموت. نعم، لقد كـــان موتـــه موتا نيابياً وكفارياً، أي أنه كان يموت بالنيابة عن كل واحد من المؤمنيـــن بـــه، أولئك الذين بسرور وشكر وضعوا كل ثقتهم فيه.

وهنا أنا أنتقل إلى جانب مختلف تماماً من الصورة السابقة لأتأمل، لا فـــي ما تراه العين البشرية، بل ما تراه عين الإيمان، فأقول

ثانياً: ما أروع موت المسيح!

نعم ما أروع الطريقة التي انتهت بها حياة المسيح* ! ومرة أخرى أقارن هنـــا بين حياة المسيح وموته. فحياته ما أروعها. لقد عاش كل حياتـــه متكـــلاً علـــى إلهه. يقول له بحسب المزمور ٢٢ «لأنك أنت جذبتني مـــن البطـــن. جعلتنـــي

---

* إنجيل لوقا، الذي يحدثنا عن المسيح ابن الإنسان، سجّل لنا تفصيلات مولده وموته: خروجه مـــن رحم المطوّبة العذراء مريم إلى الحياة، ثم خروجه من الحياة بالموت إلى القبر!

مطمئناً على ثديي أمي. عليك أُلقيتُ من الرحم. من بطن أمـــي أنـــت إلـــهي». فذاك الذي هو الله من الأزل، صار إنساناً، وأخذ مركز الإنســان الكــامل المُتَّكِــل على الله. ولقد عاش حياة لا نظير لها. وها هو يموت كالإنسان. فكيف يموت؟

إنه يموت وعلى شفتيه صلاة للآب! إنه يقول له: «يا أبتـــاه، فـــي يديـــك أستودع روحي»، ثم يموت. فما أروع هذا!

لقد كانت أُولى كلماته المسجلة له في الوحي المقدس هي قوله للمطوَّبة أمـــه بحسب ما ورد في لوقا ٢ «ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي*؟» فـــهو هنا قال عن الله إنه أبوه، تماماً كما قال الله عنه «أنت ابنـــي الحبيـــب». أمـــا الأشرار فقد اعتبروه مُجَدِّفاً لأنه قال إن الله أبوه، فصلبوه. لكن ها هـــو، فـــي آخرِ نُطق له من فوق الصليب، وقبل أن يسلم الروح، يقول بصوت عظيم «يـــا أبتاه، في يديك أستودع روحي».

لقد كان سيدنا دائماً هو بحق الإنسان الكامل المتكل علـــى الله، فلمَّـــا أتـــت ساعة الموت كان هو أيضاً الإنسان المتكل علـــى الله. هـــو القـــائل بحســـب المزمور١٦ «احفظني يا الله، لأني عليك توكلتُ»، ثم يضيـــف قـــائلاً «جعلـــت الرب أمامي في كل حين، لأنه عن يميني فلا أتزعزع»، ثـــم يســـتطرد قـــائلاً «لذلك فَرِحَ قلبي، وابتهجت روحي. جسدي أيضاً يسكن مطمئناً». ولهذا فـــإن المسيح هنا أمام مشهد الموت ما زالت ثقته في إلهه كاملـــة، فيســـتودع روحـــه الإنسانية بين يدي الآب.

صحيح كان المسيح قد سبق وأنبأ عن ذلك اليوم العصيـــب أن ابـــن الإنســـان

---

* إنجيل لوقا، الذي – كما أشرنا – يحدثنا عن المسيح باعتباره الإنسان، ذكـــر لنـــا أولـــى كلمـــات الرب يسوع المسجَّلة في الوحي وآخر كلماته. كلماته الأولى كانت عن أبيـــه، والأخـــيرة إلـــى أبيه، فهو في حياته كان في ما لأبيه، وعند موته كان في يدي أبيه.

سوف يُسلَّم إلى أيدي الناس الخطاة (لو٩: ٤٤؛ ٢٤: ٧)، وهذا ما حدث من لحظة القبض عليه في البستان حيث ألقوا عليه الأيادي (مت٢٦: ٥٠؛ مر١٤: ٤٦؛ لو٢٢: ٥٣)، لكنه الآن، وقد أكمل العمل، يسلِّم روحه **في يدي الآب**. وصحيح أيضاً أنه عبرت على المسيح في الجلجثة عاصفة هوجاء، لم يمرَّ فيها وجه الله الكريم، عندما دخلت نفسه في أعماق الظلمة. لكنه بعد هدوء العاصفة وعبور الظلمة استعاد شركته ثانية مع الله أبيه كي لا تتعطل بعد ذلك ولو إلى لحظة واحدة. وها هو يقول «**يا أبتاه، في يديك أستودع روحي**».

كان – تبارك اسمه – عجيباً ورائعاً في كل شيء: لم يُولد أحد كما ولد هو، ولم يَعِش أحد كما عاش، ولم يَمُت أحد كما مات. إنه الفريد حقاً في كل شيء!!

لنتعلم أنه إن كنا نتمنى أن تكون خاتمة حياتنا صلاة، فلتكن حياتنا نفسها حياة الصلاة، وإن من أراد أن يموت موت الأبرار، وأن تكون آخرته كآخرتهم، عليه أولاً أن يحيا حياة الأبرار.

هذا يجعلني أحدثك – أيها القارئ العزيز – عن كيف يجب أن تنتهي الحياة. فلقد تحدَّثنا الآن عن موت المسيح الصعب والرائع في آن معاً. كيف استطاع المسيح أن يجمع النقيضين؟ وكيف استطاع أمام موت رهيب كهذا أن يتصرف هكذا، وعندما أتت لحظة الانطلاق أن يتحول عن الكل إلى الله مخاطباً إياه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»؟

الإجابة: إن عادة المسيح في كل حياته كانت أن يسلم نفسه تماماً لأبيه. كان سيدنا المبارك، كل حياته، في شركة مع أبيه، كانت كل حياته صلاة. وعندما دنت ساعة الموت كان الاتكال على الله والصلاة شيئين طبيعيين بالنسبة له.

ومن هذا نتعلم أنه إن كنا نتمنى أن تكون خاتمة حياتنا صلاة، فلتكن حياتنا نفسها حياة الصلاة، وإنَّ من أراد أن يموت موت الأبرار، وأن تكون آخرته كآخرتهم (عد٢٣:١٠)، عليه أولاً أن يحيا حياة الأبرار.

أتعرف كيف يموت البار؟ إنه في اللحظة التي تنطلق فيها روحه من عِقال الجسد، تذهب فوراً لتكون مع المسيح في الفردوس، أما الأشرار فعنهم يأتي قول الكتاب «الأشرار يرجعون إلى الهاوية، كل الأمم الناسين الله» (مز ٩:١٧). وما أبعد الفارق بين النهايتين، بل ما أبعد الفارق أن يستودع المؤمن روحه – ساعة رقاده – بين يدي راعيه وفاديه الحبيب، وآخَر يقع في يدي الله الغاضب، إذ «مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي».

* * * *

ولكن لنا أن نتعلم أيضاً من هذه العبارة: «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»، المزيد من الدروس الثمينة.

أولاً : أن المسيح مات موتاً حقيقياً

يدَّعي بعض المعلمين الكذبة والهراطقة بأن المسيح لم يمت فوق الصليب، بل كل ما حدث له هو إغماءة فقط، وأنه لمَّا وُضع في القبر الرطب استعاد وعيه من جديد وأفاق! وهم بهذا يضربون عرض الحائط بآيات الكتاب الصريحة والعديدة التي تقول إنه مات. «فإنني سلمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضا: أن المسيح **مات** من أجل خطايانا حسب الكتب... لأنه إن كان الموتى لا يقومون، فلا يكون المسيح قد قام» (١كو١٥:٣،١٦)، وأيضاً «لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع **مات** وقام، فكذلك الراقدون بيسوع، سيُحضرهم الله

أيضاً معه» (١تس٤:١٤). بل أيضاً كلمات المسيح نفسه عندما قال ليوحنا الحبيب في جزيرة بطمس «أنا هو الأول والآخر، والحي. وكنت ميتاً، وها أنا حي إلى أبد الآبدين» (رؤ١:١٧،١٨).

لقد كان الموت أحد أهم أغراض تجسد ابن الله. لقد «وُضِعَ قليلاً عن الملائكة (بالتجسد)... **من أجل ألم الموت**» (عب٢:٩). وأيضاً «إذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد **بالموت** ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس» (عب٢:١٤). فالمسيح إذاً أتى إلى العالم «لكي يذوق بنعمة الله **الموت** لأجل كل واحد» (عب٢:٩).

وشهادة شهود العيان هي أقوى الأدلة في أية قضية، وتزداد طبعاً قيمة شهادتهم إذا كانوا ذوي اختصاص في المسألة التي يؤدون شهادتهم فيها. وفي مسألة موت المسيح فإن الشهود الرسميين هم الجنود الذين كان منوطاً بهم القيام بعملية الصلب. فيقول لنا إنجيل يوحنا «سأل اليهود بيلاطس أن تُكسّر سيقانهم (المصلوبين) ويُرفعوا. فأتى العسكر وكسروا ساقي الأول والآخر المصلوب معه. وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه، لأنهم رأوه قد **مات**» (يو١٩:٣١). وبالتأكيد ما كان أحد من الجنود يجرؤ على مخالفة التعليمات الصريحة التي عنده من الوالي بكسر ساقي كلٍ من المصلوبين الثلاثة ما لم يكن هناك سبب هام لذلك، فما هو يا ترى هذا السبب؟ السبب هو أن المسيح كان قد مات. وهم بكل يقين كانوا مُدربين جيداً على عملهم هذا، وبالتالي فهم أقل الناس عرضة للخطأ في هذا الأمر.

ثم قد كان على رأس الجنود المكلفين هذا العمل قائد مئة: هذا القائد لما رأى العجائب التي صاحبت موت المسيح قال «حقاً كان هذا ابن الله» وأيضاً «بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً». لاحظ قول القائد: «**كان** هذا ابن الله»، و«**كان** هذا...

باراً»، وليس *إن* هذا، مما يعني أنه كان قد مات. ويزيل البشير مرقس أي التباس في الأمر إذ يذكر صراحة أن قائد المئة الواقف مقابل المسيح «لما رأى... أنه صرخ هكذا وأسلم الروح، قال حقاً كان هذا الإنسان ابن الله» (مر١٥:٣٩).

بل إن البشير مرقس يستطرد قائلاً إن بيلاطس دعا قائد المئة وسأله «هل له زمان قد مات؟» (مر١٥:٤٤). فالأمر لم يمر هكذا دون تحرٍّ من الوالي بنفسه عن هذه الحقيقة العظيمة.

وهنا لنا في كلمة المسيح الأخيرة من فوق الصليب دليل في مسألة موت المسيح، إذ إن يسوع صرخ بصوت عظيم قائلاً «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي».

ثانياً: أن المسيح مات موتاً اختيارياً

فنحن هنا لا نسمع المسيح يقول بصوت متهدج: ها أنا أغيب عن وعيي وأخور، ولا حتى: ها أنا ذاهب في طريق الأرض كلها (يش٢٣:١٤؛ ١مل٢:٢)، بل إنه نادى بصوت عظيم وقال «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». وصراخه بصوت عظيم يدل على أن قواه الجسدية كانت حاضرة تماماً. ثم إنه في صفاءٍ ذهنيٍّ يقتبس آية مناسبة من سفر المزامير، مما يدل على أن قواه الذهنية أيضاً كانت حاضرة. ثم إنه لا ينحني مُرغَماً أمام الموت، ملك الأهوال، بل يقول لأبيه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». وبعد أن فاه بهذه العبارة أسند* رأسه وأسلم الروح.

---

* يعلّق "فاين" على عبارة «نكس رأسه» الواردة في يوحنا ١٩: ٣٠ بالقول إن الكلمة "نكس" تعني حرفياً "أسند". لقد وضع رأسه في وضع الراحة، ووجهه نحو السماء، بعد أن أنجز المهمة التي كلفه إياها الله. ثم أسلم الروح.

قال أحد الأفاضل: "مَن فينا يذهب ولو إلى النوم، وينام بإرادته كما فعل هو – تبارك اسمه – عندما مات؟ مَن فينا يخلع ملابسه بسهولة ويسر بمطلق رغبته كما فعل يسوع عندما خلع جسده؟ من فينا يخرج من باب غرفته عندما يريد كما فعل سيدنا عندما خرج من هذا العالم وقت أن أراد؟"

ثم ما أعظم هذا التعبير الذي تكرر في الأناجيل الأربعة جميعاً «أسلم الروح»*. فروحه لم يأخذها أحد منه عنوة، بل كما قال له المجد «أضعها أنا من ذاتي» (يو١٠:١٨). نعم لم تؤخذ روحه منه قهراً، بل بكامل إرادته واختياره قَبلَ الموت. وبلغة إشعياء ٥٣:١٢ «سكب للموت نفسه».

مَن فينا يذهب ولو إلى النوم وينام كما فعل المسيح عندما مات؟ مَن فينا يخلع ملابسه بسهولة ويسر بمطلق رغبته كما فعل هو عندما خلع جسده؟ من فينا يخرج من باب غرفته كما فعل سيدنا عندما خرج من هذا العالم وقت أن أراد؟

ثالثاً: أن المسيح مات مسلِّماً الروح في يدي الآب

نعرف من سرد الأناجيل لأحداث الصلب أن أحداً من التلاميذ لم يكن إلى جوار المسيح عند الصليب، إذ تركه الجميع وهربوا (مر١٤: ٥٠)، بل إن النساء

* بمقارنة الكلمة اليونانية كما وردت في الأناجيل الأربعة نجد أحد الأدلة على الوحي اللفظي لكلمة الله. ففي إنجيل متى الذي يتكلم عن المسيح بصفته الملك ترد كلمة تعني حرفيا أنه "صرف الروح". وفي كل من إنجيلي مرقس ولوقا، اللذين يكلماننا عن المسيح باعتباره الخادم وابن الإنسان، ترد كلمة يونانية أخرى بمعنى "أخرج الروح". أما في يوحنا، إنجيل ابن الله، فالكلمة المستخدمة هناك تعني حرفيا "أسلم الروح". إنه صاحب السلطان على روحه (يو١٠:١٨)، وهو في هذا يقف في مباينة مع كل البشر (جا٨: ٨).

الوفيات أيضاً لم يكنْ في لحظة موته على مقربة منه، بل كنَّ «ينظرن من بعيـــد» (مت٢٧: ٥٥؛ مر١٥: ٤٠؛ لو٢٣: ٤٩). لكن الآب كان قريبـــاً منـــه فـــي تلـــك اللحظات، فقال له: « يا أبتاه، في يديك أستودع روحي».

إنه لم يسلِّمها في أيدي الملائكة بل في يدي أبيه. ومع أنه – تبارك اســـمه – كـــان موضـــوع خدمـــة الملائكـــة فـــي مســـيرته هنـــا فـــوق الأرض (مز ٩١: ١١،١٢)، وهو كالإنسان الكامل تمتع بخدمة أيديهم في حياتـــه، لكنـــه الآن عند موته لا يسلِّم روحه في أيديهم بل في يدي الآب.

يظن قوم أن المسيح ذهب إلى الجحيم من قِبَل الصليب. لكـــن تلـــك العبـــارة السابعة من فوق الصليب، آخر عباراته قبيل موته تمنعنا من الوقوع في هذا الخطـــأ. لقد قال لأبيه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»، وقبلها كان قد قال للص التـــائب «الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس». هذان النطقان لسيدنا، وهـــو فوق الصليب، يُعرِّفاننا تماماً أين انطلقت روحه عندما دخل جسده – له كل المجد – إلى القبر. وبدخوله إلى القبر لم ينزل فقط إلى الأرض، (فهو كان قـــد نـــزل مـــن السماء إلى الأرض بالتجسد) لكنه بالموت نزل إلى أقسام الأرض السفلى (أف٤: ٩). لكنه في الوقت نفسه استودع روحه بين يدي الآب، وانطلق إلى الفردوس.

آخـــرَ الأقـــوالِ مـــا أروعَـــها ... في يديـــكَ روحـــي أســـتودِعُها
في يـــدي الآبِ قـــد أودعتَـــها ... باختيـــارٍ أنـــتَ لـــمْ تمنعَـــــها
نفسَـــكَ للمـــوتِ قـــد أســـلمتَها ... لكَ سلطانٌ تضعـــها أو تدعـــها
لـــم تُســـلمُها إليـــهِ عُنُـــوةً ... قلتَ قبلاً "أنا من ذاتي أضعـــها"
قصة الصلبِ سَمَتْ جـــداً كمـــا ... كلماتُ الصلـــبِ مـــا أروعـــها

* * * *

والآن بعد أن ركزنا الحديث على الموت الذي ماته المسيح، أريـــد الآن أن ألقي نظرة على هذه العبارة ذاتها.

هذه العبارة اقتبسها الرب – له المجد – من المزمور الحـــادي والثلاثيـــن. ومن هذا نتعلم المكان البارز والهام للكتاب المقدس في حياة المسيح. إنـــه هـــو القائل «شريعتك في وسط أحشائي» (مز٤٠:٨). ولهذا فإنه لمَّـــا كـــان علـــى الصليب وجَّه عباراتٍ ثلاثاً للآب كانت كلها مُستوحَاة مـــن الكتـــاب المقـــدس: العبارة الأولى «يا أبتاه، اغفر لهم» كانت تتميماً للنبوة الواردة في آخر آية فـــي إشعياء ٥٣ «شفع في المذنبين»، والعبـــارة الرابعـــة «إلـــهي، إلـــهي، لمـــاذا تركتني؟» كانت اقتباساً حرفياً من أول آية في المزمور٢٢، والآن هذه العبـــارة السابعة والأخيرة – موضوع تأملنا – كانت أيضاً اقتباساً من مزمور٣١:٥.

لقد كان يلذ للمسيح الاقتباس من الكتاب. ومع أنه لم تكن تعوزه الكلمـــات التي بوسعه أن يصوغها صياغة إلهية، فكما شهد له أحباؤه «أنت أبرع جمـــالاً من بني البشر، انسكبت النعمة على شفتيك» (مـــز٤٥:٢)، وكمـــا شـــهد عنـــه أعداؤه «لم يتكلم قطّ إنسان هكذا مثل هذا الإنسان» (يو٧:٤٦). لكنه – تبـــارك اسمه – فضّل ألا يصوغ عبارة جديدة، بل أن يقتبس من الوحي ذاته. لقد كـــان هو نفسه الكلمة، الكلمة الذي كان في البدء عند الله، والكلمة الذي صار جســـداً وحلَّ بيننا (يو١: ١،٢،١٤). لكنه أيضاً كان يعيش بالكلمـــة المكتوبـــة، وكـــان شعاره «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمـــة تخـــرج مـــن فـــم الله» (مت٤: ٤)، وأيضاً «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت، وشـــريعتك فـــي وســـط أحشائي» (مز٤٠:٨). لقد بدأ خدمته في البرية باقتباساتٍ ثلاث مـــن كلمـــة الله وجهها إلى الشيطان، وختم حياته من فوق الصليب بصلواتٍ ثـــلاث مســـتوحاة من هذه الكلمة عينها، وجهها إلى الله!

نحن لا نستودع أشياءنا الثمينة لدى شخص مجهول، ولا لشخص ميت لا يقدر أن يحافظ عليها. فإن كنا لا نفعل ذلك بأمور الدنيا الفانية فبالأولى كثيراً بالنسبة لأرواحنا الخالدة. فلنتعلم من المسيح هذا الدرس القالي.

لكن من المهم أن نلاحظ كيف اقتبس المسيح من المزمور. فلقد أضاف شيئاً إلى الآية في أولها، كما أغفل ذكر عبارة وردت في آخرها. فهي في المزمور «في يدك أستودع روحي، فديتني يا رب إله الحق». فأضاف المسيح كلمة «يا أبتاه» في أولها. وهي كلمة لم يكن ممكناً لقديسي العهد القديم أن يقولوها. أما نحن فنقولها لأن سيدنا علمنا أن نبدأ صلاتنا بالقول «أبانا»، وأما المسيح فيقولها ولكن بمعنى أعمق وأعظم*. فنحن أخذنا روح التبني الذي به نصرخ «يا أبا، الآب» (رو٨:١٥)، وأما المسيح فهو الابن الوحيد الأزلي. وحتى عندما صار إنساناً فإنه بكرٌ بين إخوة كثيرين. لذلك قال للمجدلية «اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم» (يو٢٠:١٧)، ولم يقل إلى أبينا.

وأما العبارة الأخيرة في أقوال كاتب المزمور فلم يكن مناسباً أن يقولها المسيح، حتى وإن قالها داود: فهو لم يُفْدَ، بل بالحري قدَّم نفسه باعتباره الفادي الوحيد، لذلك لم يقل المسيح «فديتني يا رب»، وأما نحن في العهد الجديد فكم يلذ لنا، نحن المفديين، أن نقولها. بل هي في أفواهنا أشهى وأحلى مما تذوقه المرنم في العهد القديم وهو ينطق بها أوّل مرة.

* * * *

* لقد راعت الترجمة التفسيرية هذا الأمر عندما ترجمت العبارات الثلاث المتشابهة بحسب ترجمتنا المعتادة (فاندايك). ففي مرقس ١٤: ٣٦ ترد عبارة «يا أبا، الآب» التي نطق بها المسيح هكذا: "يا أبا، أبي"، وأما في رومية ٨: ١٥، وفي غلاطية ٤: ٦ حيث ترد هذه العبارة عنا، فقد وردت في هذه الترجمة "يا أبا، أبانا".

«**يا أبتاه، في يديك أستودع روحي**». والإنسان عـــادة عنـــد الاحتضـــار يستودع أغلى ما عنده لأعز من لديه. وها هو المسيح يستودع روحه الإنســانية لأبيه. إن روح الإنسان هي بكل يقين أغلى وأهم ما يمتلـــك الإنســـان. إنـــها أعظم أجزاء كيان الإنسان الثلاثي: الروح والنفـــس والجســـد (١تـــس٥:٢٣). والجسد عند الموت يرجع إلى التراب كما كان، وأما الـــروح (ومعـــها النفـــس) فترجع إلى الله الذي أعطاها.

ونحن لا نستودع أشياءنا الثمينة البتَّة لدى شخص مجـــهول لا نعرفـــه، ولا لشخص ميت لا يقدر أن يحافظ عليها. فإن كنا لا نفعـــل ذلـــك بـــأمور الدنيـــا الفانية فبالأولى كثيراً بالنسبة لأرواحنا الخالدة. لذلك فإننا هنا نتعلم من المســـيح درساً غالياً وعظيماً عندما قال لأبيه قبل أن يموت «يا أبتاه، في يديك أســـتودع روحي». ولقد وعى ذلك الأمر شهيد المسيحية الأول استفانوس، وتعلَّـــم مـــن صليب سيده أثمن الدروس. فكما صلى المسيح لأجل صالبيه قائلاً «يـــا أبتـــاه، اغفر لهم»، فإنه هو أيضاً قال عن راجميه «يا رب، لا تُقِمْ لهم هذه الخطيـــة». وكما قال المسيح لأبيه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»، هكذا هو أيضاً قـــال «أيها الرب يسوع، اقبل روحي».

* * * *

دعني في النهاية أختم تأملاتي في هذه الأقوال الثمينة بهذه النصيحة الغاليـــة للقارئ العزيز: ليتك لا تنتظر ساعة الوفاة لكي تنطق بهذه العبارة العظيمة، بـــل لتكن هذه صلاتك في كل صباح، بل ليكن هذا شعارك في كل حيـــن. قـــل لله: "يا أبانا في يديك استودع روحي ونفسي وجسدي. أنا أحتاج إليـــك فـــي كـــل لحظة من لحظات يومي، فتفضل يا سيدي وامسك بدفـــة حيـــاتي، وكـــن أنـــت قابض قرعتي، ولتكن في يديك آجالي وأوقاتي".

ونحن إذ نقول للرب «في يديك أستودع روحي» فإننا علـــى التـــو نتذكـــر الكُلفة الكبيرة التي تكلفها، فنقول له «فديتني يا رب إله الحق»، ولأنه فدانا فـــهو يستحق كل كياننا «كي يعيش الأحياء في ما بعد لا لأنفسهم، بـــل للـــذي مـــات لأجلهم وقام» (٢كو٥:١٥)، «لأننا إن عشنا فللرب نعيـــش، وإن متنـــا فللـــرب نموت، فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن» (رو١٤:٨).

دعوني إلى الجلجثة

دَعوني إلى الجلجثــة أقــتربْ لأعرِفَ أحــزانَ ربٍّ صلِيــبْ
وأُصغــي لأســمعَ أقوالَــــهُ وأدنــو لأنظُــرَهُ عَــنْ كَثَــبْ
فإذ بي يَشُــقُّ علــيَّ السـمَعْ وقلبــيْ لمنظــرِهِ يضطَــرِبْ
فصوتُهُ يعلـــو بعمــق الألــمْ ليسألَ صَفْحــاً لأبشــعِ ذَنْــبْ
يــذوبُ لحــالِ امِــه رِقّــةً فحَالُها عــنْ بَالــهِ لــم يَغِــبْ
ويمنحُ مجــداً للّــصٍ يتــوبْ ويَعرِضُ عفواً لِمَنْ لــم يَتُــبْ
أيا ربّــي صرختُــك المُــرّةُ لها قلبي ذابَ ودمعي انســكَبْ
فها اللهُ فــي غضــبٍ فــاتَكَ وعن وجهِكَ وجْهَهُ قَدْ حَجَــبْ
عَطِشْتَ ولكنْ صرخت لكــي تتمِمَ كــل الــذي قــد كتِــبْ
وإذْ تَمَّ أعلنــتَ «قَــدْ أُكمِــلَ» فكلُّ حســابي عليــكَ حُسِــبْ
وهكــذا روحُــك أودعتَــها أباكَ بكــلِّ خضــوعٍ وحُــبْ

* * *

أيا ربُّ طيبــي قليــلٌ عليــكَ كذا نــاردِيني إذا مــا سُــكِبْ
ولا يكفــي مــالٌ ولا فضــةٌ ولو كنتُ أملكُ أغلى الذهــبْ
فيا ليتَ دمعي علــى قدميــكَ يسيلُ فيكشفَ عرفــانَ قلــبْ
ويغسِلهُما مِنْ جــروحٍ دَمَــتْ بفعلِ الحديدِ الــذي قــد ثَقَــبْ
وليتني أقضــي حيــاتي هُنــا أُقبّلــهُما بامتنــانٍ وحُــبْ

فيبي فارس

بقلم المؤلف

○ تأملات في الموعظة على الجبل	
○ وحي الكتاب المقدس	طبعة ثالثة
○ الشيطان	
○ معجزات المسيح	
○ مواسم الرب	
○ مختصر شرح سفر الرؤيا	طبعة ثالثة
○ المعمودية المسيحية	
○ ثلاث حقائق أساسية في الإيمان المسيحي	طبعة خامسة
○ المسيح الطبيب العظيم	
○ المسيح المنقذ العظيم	
○ المسيح الرفيق العظيم	
○ شهود يهوه	
○ المسيح المتألم	
○ أجراس النعمة	
○ رحلة الكنيسة	
○ الصلاة النموذجية	
○ عودة الهارب	
○ في مجمع الناصرة	

تحت الطبع

المزامير المسياوية

الاختيار

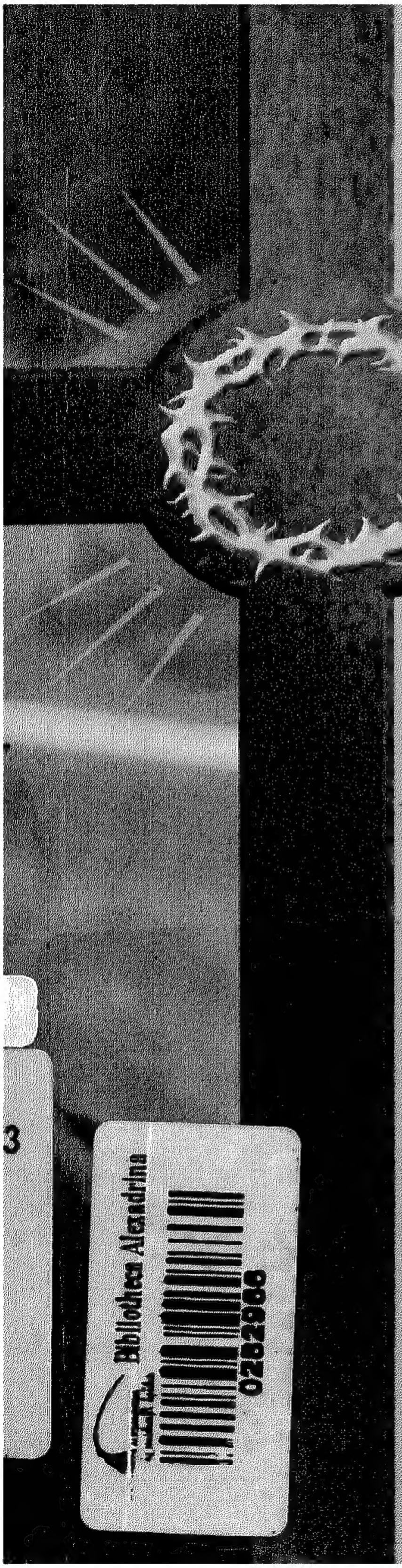

كلمات الرب من فوق الصليب موضوع شيق، يجد فيه كل دارس للكلمة المكتوبة، وكل محب للكلمة المتجسد، مادة دسمة وشهية.

فعباراته السبع

هي بمثابة طاقات نتطلع من خلالها إلى ما كان يدور في ذهن مسيح الله خلال ساعات الصليب. ومع أنها كانت كلمات مقتضبة فهي محمَّلة بالمعاني، زاخرة بالدلالات.

سبع عبارات. والرقم «سبعة» في كل الكتاب المقدس من أوله إلى آخره، هو رقم الكمال. والآن إذ نتأمل في عبارات المسيح السبع من فوق الصليب فإننا نتأمل في الكمال بعينه.

إنها عبارات تتلألأ بأروع مما تتلألأ به المنائر السبع الذهبية، وتشع من الضياء أعظم مما تشع به الكواكب السبعة في سفر الرؤيا. ولكم اهتدى بهديها الملايين! ولكم شهدت لسموّ قائلها، وسموّ عمله في آنٍ معاً!